وزارة التعليم العالي
الملحقية الثقافية السعودية في فرنسا

رواية



باتريك موديانو

مقهى الشباب الضائع

ترجمة

محمد المزديوي

مقهى الشباب الضائع

مقهى الشباب الضائع

رواية

تأليف

باتريك موديانو

ترجمة

محمد المزديوي

وزارة التعليم العالي
الملحقية الثقافية السعودية في فرنسا

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: 1430 هـ - 2009 م

الطبعة الثانية: تشرين الأول 1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-739-6

وزارة التعليم العالي - المملكة العربية السعودية

الملحقية الثقافية السعودية في فرنسا

26 Rue Murillo

75008 Paris

France

هاتف 0033144018686 - فاكس 0033142277214

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp. com. lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www. asp. com. lb

لتنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

"إلى منتصف طريق الحياة الحقّ، كُنّا مُحاطين بسويداء قاتمة عبَّرَ عنْها كثيرٌ من الكلمات الساخرة، الحزينة، في مقهى الشباب الضائع"

كي دُوبور

من بين مَدْخَلَي المقهى، كانت تستعمل دائما المدخل الضيق، والذي يسمى باب الظل. كانت تختار نفس الطاولة في أقصى القاعة الصغيرة. في أول الأمر لم تكن توجه الحديث لأحد، ثم تعرفت بعدها على مرتادي "كوندي" الذين كان معظمهم في مثل سنها، أي ما بين تسع عشرة سنة وخمس وعشرين سنة. كانت تجلس أحيانا إلى طاولاتهم، ولكنها في معظم الأحيان، كانت وفية لمكانها، في أقصى القاعة.

لم تكن تأتي في ساعة محددة. إذ يمكن رؤيتها جالسة هنا في ساعة مبكرة في الصباح. أو أنها تظهر في نحو منتصف الليل وتظل إلى فترة الإغلاق. كان المقهى يتميز بكونه آخر من يغلق بابيه في الحي بجانب مقهيي لوبوكي ولابيرغولا، وكان هو المقهى الذي يتسم مرتادوه بالغرابة. أتساءل، مع الزمن، إن لم يكُن تواجدُها، لوحده، هو من يمنح لهذا المكان ولهؤلاء الناس غرابتهم، كما لو أنها طبعتهم جميعا بعطرها.

لنفترض أنكم حُمِلتم إلى هنا، وعيونكم مغمضةٌ، ووضعتم إلى طاولة، ونزعت عنكم الغمادة وتركتم خلال دقائق كي تجيبوا على السؤال: في أي منطقة من باريس تتواجدون؟ كان سيكفيكم أن تنظروا إلى من يحيطون بكم وتستمعوا إلى كلامهم وتخمنوا أنكم متواجدون بجوار ملتقى طرق الأُودْيُون التي أتخيلها كئيبة جدا تحت المطر.

ذات يـــوم دخـــل إلى مقهى "كوندي" مصور، لا شيء في هيئته يميزه عن الزبائن. نفس العمر ونفس الملابس المهملة. كان يلبس سترة طويلة جدا وسروالا من قماش وحذاءا عسكريا ضخما. التقط العديد من الصور لمن كان يرتاد مقهى كوندي. كان قد أصبح من رواده، هو الآخـــر، وكان الأمر يتعلق، في نظر الآخرين، كما لو أنه يلتقط صور العائلة. فيما بعد ظهرت الصور في ألبوم مكرس لباريس وكان الشرح عبارة عن أسماء الزبائن الشخصية أو ألقابهم. كانت صورها تظهر على العديد من الصور. وكانت تلفت النظر أكثر من غيرها، كما نقول في لغة السينما. وكانت هي التي يلاحظ المرء، في أول وهلة، من بين باقي الـــصور. وكانـــت هي في أسفل الصفحة، ويُشار إليها، في الشروح، باســـم شخـــصي: "لوكي" "من اليسار إلى الشمال: زكريا، لوكي، طـــرزان، جون – ميشيل، فريد، وعلي شريف.." "في صدر الصورة، لوكي جالسة إلى منضدة الشرب، وخلفها يوجد أنيت، دون كارلوس، ميراي، أداموف والدكتور فالا." كانت مستقيمة جدا في وقفتها، بينما يظهر الآخرون في أوضاع ارتخاء، فالمدعو فريد، مثلا، نام ورأسه متكئة علـــى مقعد قطني ناعم، ويبدو أنه لم يحلق ذقنه منذ عدة أيام. يجب أن نحدد التالي: اسم لوكي الشخصي مُنح لها في الوقت الذي بدأت ترتاد فـــيه مقهـــى كوندي. كنت هنا، ذات مساء، دخلت فيه في منتصف الليل، ولم يكن في المقهى سوى طرزان وفريد وزاكرياس وميريل، وهم جالـــسون إلى نفس الطاولة. بدا في أول الأمر أنها مرعوبة ثم ابتسمت. نهـــض زكريا من مقعده وقال، متصنعا الوقار: "سأعمّدك هذه الليلة. أنـــت مـــن الآن فصاعدا تُدْعين لوكي." ومع مرور الوقت، ومع دأب الجمـــيع على مناداتها بلوكي، أعتقد أنها شعرت بالارتياح لحملها هذا الاســـم الجديد. نعم شعرت بالارتياح. وفي الحقيقة، كلما فكرتُ في

الأمـــر كلمـــا أستعيد انطباعي الأول، وهو أنها تلجأ إلى هذا المقهى، لوكوندي، كما لو أنها تهرب من شيء ما، أو تنجو من خطر يُلاحقها. جـــاءتني هـــذه الفكرة حين رأيتها وحيدة، في أقصى المقهى، في ذلك المكـــان الـــذي لا يمكـــن لأحد أن يلحظها. وحين كانت تختلط مع الآخـــرين لم تكـــن تلفـــت الانتباه. تظل صامتة، ومحتشمة وتكتفي بالاســـتماع. وقلـــت في نفـــسي بأنهـــا كي تشعر بأمان أكبر تفضل المجمـــوعات الصاخبة، "الثرثارين"، وإلا فإنها ما كانت لتظل، تقريبا، طـــول الـــوقت جالسة إلى طاولة زكريا وجون ميشيل وفريد وطرزان ولاهوبا... معهم كانت تذوب في الديكور، لم تكن سوى كومبارس مجهـــولة، مـــن اللـــواتي يقال عنهن في أساطير الصُّوَر "شخص لم يتم تحديده" أو، ببساطة "سين". نعم، في الأوقات الأولى، في الكوندي، لم أرهـــا قط مختلية بأحد. ثم إنه لم يكن ثمة من ضير في أن يدعوها أحد الثرثارين لوكي، ما دام أنه لم يكن اسمَها الحقيقي.

لكن من يراقبها لا بد وأن يلاحظ بعض التفاصيل التي تجعلها تخـــتلف عن الآخرين. كانت تضيف إلى ملابسها لمسة غير معهودة لدى مرتادي مقهى كوندي. ذات مساء، كانت جالسة إلى طاولة طـــرزان وعلي شريف ولاهوبا، أشعلت سيجارة فتعجبت من رقة يديها. وبشكل خاص من أظفارها البراقة. كانت مغطاة بطلاء عديم اللون. هذا التفصيل الصغير يمكن أن يبدو عديم الجدوى. إذاً لنكن أكثـــرَ رصانة. ولهذا السبب يتوجب تقديم بعض الإيضاحات حول الذين تعودوا على ارتياد مقهى كوندي. كانت أعمارهم تتراوح ما بين سن التاسعة عشر والخامسة والعشرين، عدا بعض الزبائن، مثل بابيلي وأداموف أو الدكتور فالا الذين كانوا يقتربون حثيثا من سن الخمسين، ولكن كانت تنسى أعمارهم. بابيلي وآدموف والدكتور

فـــالا كانـــوا أوفـــياء لشبابهم، أي لهذه الكلمة الجميلة والرخيمة والمهجـــورة الـــتي نطلق عليها "بوهيميين". أبحث في القاموس عن تفـــسير لكلمة "بوهيمي" فأقرأ: شخص يعيش حياة متسكعة، من دون قـــواعد ولا قلـــق على المستقبل. هذا التعريف ينطبق على من يـــرتاد مقهـــى كـــوندي من النساء والرجال. البعض مثل طرزان وجـــون - ميشيل وفريد يدّعون أنه حدثت لهم مشاكل عديدة مع الشرطة منذ فترة مراهقتهم كما أن لاهوبا هربت في سن السادسة عـــشر من سجن الأحداث في بون- باستور. ولكننا كنا نتواجد في الـــضفة اليسرى من نهر السين ومعظم الزبائن كانوا يعيشون في ظل الأدب والفنون. أنا بدوري كنت أتابع دراستي في الجامعة. لم أكن أجـــرؤ أن أتحدث إليهم عن الأمر و لم أكن أنضم بصفة حقيقية إلى المجموعة.

شعرتُ جيدا أنها كانت تختلف عن الآخرين. من أين أتتْ قبل أن يمـــنح لهـــا هذا اللقب؟ في معظم الحالات، كان مرتادو مقهى كـــوندي يحملون كتبا في أيديهم ويضعونها، بإهمال، على الطاولة، ويكـــون غلافها ملطّخا بالنبيذ. "أناشيد مالدورور". "الإشراقات". "المتاريس السرية". ولكنها، في بداية الأمر، كانت تأتي من دون أن تحمـــل في يديها شيئا. ثم أرادت بعد ذلك، من دون شك، أن تفعل مـــثل الآخـــرين. وذات يوم، فاجأتُها، وحيدة، في مقهى كوندي، وهي منهمكة في القراءة. ومن حينها لم يغادرها كتابها. كانت تضعه بـــشكل لافت على الطاولة، حين تكون برفقة آدموف والآخرين، كما لو أن كتابها هو جواز سفرها أو بطاقة إقامة تُشرْعِن حضورها بجانـــبهم. ولكن لم يُعِر أحد أهمية للأمر، لا آدموف ولا بابيلي ولا طـــرزان ولا لاهوبا. كان الأمر يتعلق بكتاب جيب، بغلاف وسخ،

مـــن نوع الكتب المستعملة التي تباع على أرصفة نهر السين، وكان العنوان مطبوعا بخط كبير أحمر: آفاق ضائعة. في تلك الفترة لم يكن العـــنوان يحـــيل إلى أي شــــيء. كان عليّ أن أسألها عن موضوع الكـــتاب، ولكــــني قلت في نفسي، حينها، ببلاهة، إن كتاب آفاق ضائعة، لم يكن بالنسبة لها إلا إكسسوارا وأنها كانت تتصنع القراءة كي تساير من يرتادون المقهى. بالنسبة لشخص مارّ ينظر خلسة إلى الداخل، بل حتى لو ضغط جبينه خلال لحظة على زجاج الواجهة، سيعتبر هؤلاء الزبائن من الطلبة. ولكنه سيغير على الفور رأيه حين يـــرى كمية النبيذ التي تستهلك على طاولة طرزان وميراي وفريد ولاهـــوبا. وما كان بالإمكان أبدا شرب هذه الكميات في مقاهي الحي اللاتيني الهادئة. بطبيعة الحال في ساعات الركود لما بعد الظهيرة يمكـــن أن يشكل مقهى كوندي وهما. لكن مع سقوط الليل يصبح ملتقى لما أطلق عليه فيلسوف رومانسي "الشباب الضائع". لماذا هذا المقهى وليس مقهى آخر؟ بسبب ربّة المقهى، السيدة شاذلي التي لم يكـــن يـــبدو أنها تصاب بالذهول من شيء بل كانت تُظهر بعض التـــسامح مـــع زبائنها. بعد سنوات طويلة، وكانت شوارع الحي اللاتيني لا تظهر سوى واجهات حوانيت فاخرة، ومتجر للصناعات الجلدية قد احتل مكان مقهى كوندي، التقيتُ بالسيدة شاذلي على الـــضفة الأخرى من نهر السين، عند طلعة شارع بلانش. لم تتعرف عليّ من أول وهلة. تمشينا طويلا جنبا إلى جنب ونحن نتحدث عن كوندي. زوجها، وهو جزائري، كان قد اشترى العقار بعد الحرب. كانت تتذكر كل أسمائنا. كانت تتساءل كثيرا عن ما أصبحنا عليه، ولكنها لم تكن تمتلك كثيرا من الأوهام. كانت تعرف، منذ البداية، أن الـــنهاية ستكون بالغة الإيلام بالنسبة لنا. قالت لي إننا أصبحنا

كِلابــا ضالّة. وحين كنا نتوادع بالقرب من الصيدلية الموجودة في ساحة بلانش، أسرّت إليّ وهي تنظر في عينيّ: "مفضَّلتي كانت هي لوكي".

حين كانت جالسة إلى جانب طرزان وفريد ولاهوبا، هل كانت تــشرب مــثل مــا يــشربون أم أنها كانت تتصنع الأمر حتى لا تثير اســتياءهم؟ وفي كــل الحالات كان صدرها مستقيما وحركاتها بطيئة ورشــيقة وكانت ابتسامتها بالكاد لا تُدرك، وكانت تقاوم بشدة تأثير النبــيذ. وقــوفا على الكونطوار، من السهل ممارسة الغش. يمكنك أن تنتهــز لحظــة عــدم انتباه أصدقاء ثمالى كي تفرغ كأسك في مغسل الأواني. لكن حين يتعلق الأمر، بإحدى طاولات كوندي، فالأمر أكثر صــعوبة. هــم يرغمونك على مجاراتهم في مشروبهم. يُظهرون في هذا الأمــر حساسية بالغة ويعتبرونك غير جدير بمجموعتهم إذا لم ترافقهم إلى نهايــة ما يطلقون عليه: "السفر". فيما يخص المواد السامّة الأخرى فقد تصورتُ، من دون أن أكون متأكدا، أن لوكي تتناولها، مع بعض أعــضاء المجمــوعة. لكــن مع ذلك لم يكن في نظرتها ولا مواقفها ما يفترض أنها كانت تزور الفراديس الاصطناعية.

كنت أتساءل كثيرا حول ما إذا كان أحد من معارفها تحدث لها عــن مقهــى كوندي قبل أن تلجه للمرة الأولى. أم أن أحدا أعطاها مــوعدا في هــذا المقهى و لم يأت، فاضطُرّت أن تأتي، يوما بعد يوم، مساء بعد مساء، إلى طاولتها، على أمل اللقاء به في هذا المكان، الذي كــان نقطــة المَعْلَم الوحيدة ما بينها وبين هذا المجهول. ليس ثمة من وســيلة أخرى للقائه. لا عنوان. لا رقم هاتف. فقط اسم شخصي. لكــن ربما تكون قد جنحتْ بمحض الصدفة، إلى هذا المكان، مثلما حــدث لي. كانت متواجدة في الحي، وأرادت أن تحتمي من المطر.

اعـــتقدتُ دائمـــا أنه توجد بعض الأماكن التي تمارس سحر الجاذبية فيرتادها المرءُ إذا تمشّى في محيطها. يحدث هذا بشكل لا يُدرك، حتى من دون أن يَشعُر به المرء. يكفي شارع منحدر، رصيف مشمس أو رصـــيف ظليل. أو وابل من المطر. وهذه الأشياء تقود المرء إلى هذا المكان، إلى النقطة المحدَّدَة التي يتوجب الجنوح إليها. يبدو لي أن مقهى كوندي، ومن خلال موقعه، كانت له هذه السلطة المغناطيسية. وإذا ما أجرينا حساب الاحتمالات فإن النتيجة كانت ستؤكدها، إذْ أنه في نطاق شاسع كان من المُحتَّم الانحراف في اتجاهه. وأنا لست غريبا عن الأمر.

أحـــد أعـــضاء المجمـــوعة، بووينغ، الذي كنا نطلق عليه لقب "القائـــد"، انخرط في مسعى وافق عليه الجميع. كان يُسجل، منذ ثلاث ســـنوات أسماء زبائن مقهى كوندي، حسب توقيت وصولهم، بالتاريخ والـــساعة والدقيقة. وكلّف اثنين من أصدقائه بنفس المهمة، في مقهى بوكـــي ومقهـــى لابيرغولا، اللذين يظلان مفتوحين طول الليل. لكن زبـــائن هـــذين المكـــانين، للأسف، كانوا كثيرا ما يرفضون التصريح بأسمـــائهم. في واقـــع الأمـــر كان بووينغ يريد أن يحفظ من النسيان الفراشـــات التي تحوم بعض لحظات حول مصباح ما. كان يقول بأنه يحلـــم بِسِجّل واسع تُودَع فيه أسماء زبائن كل مقاهي باريس منذ مائة ســـنة، مـــع إشارة إلى وصولهم ومغادرتهم. كان مسكونا بما يسمّيه: "النقاط الثابتة".

في هـــذا الموج الذي لا يتوقف من النساء ومن الرجال والأطفال والكـــلاب التي تمر وينتهي بها الأمر إلى أن تضيع على طول الشوارع، يجـــبّ المـــرء الاحتفاظ بوجه، من حين لآخر. نعم يتوجب، حسب بوويـــنغ، العـــثور في وسط دوّامات المدن الكبرى على بعض النقاط

الثابتة. وقبل أن يسافر إلى الخارج سلّم لي الدفتر الذي كانت مسجَّلة فيه في فهرس، أسماء زبائن مقهى كوندي، يوما بعد يوم، خلال ثلاث سنوات. لم تَرِد فيه إلا تحت اسمها المستعار، لوكي، وأُشير إليها لأول مرة يوم 23 يناير. كان شتاء تلك السنة قاسيا، و لم يكن البعض منّا يغادر مقهى كوندي طول النهار احتماء من البرد. كان القائد يسجل أيضا عناويننا بحيث يمكن أن تُحيل إلى المسار المعتاد الذي يقود، كل واحد منا، إلى هذا المقهى. كما أنها كانت طريقة بووينغ في إرساء نقاط ثابتة. لم يسجّل على الفور عنوانها. يجب انتظار تاريخ 18 مارس كي نقرأ: "الساعة الثانية بعد الزوال. لوكي، 16 شارع فيرمات، باريس الدائرة الرابعة عشر." ولكن في الخامس من أيلول من نفس السنة، تغير العنوان: "الساعة الحادية عشرة وأربعين دقيقة، ليلا. لوكي، 8 شارع سيلس، باريس الدائرة الرابعة عشرة". أفترض أن بووينغ كان يرسم، على خرائط كبيرة لمدينة باريس، مساراتنا إلى كوندي، وهو من أجل هذا يستخدم أقلام حِبْر مختلفة. ربما كان يريد أن يعرف إن كانت ثمة حظوظ لالتقاء بعضنا بالبعض الآخر قبل الوصول إلى المقهى.

تحديدا أتذكر أنني التقيت ذات يوم لوكي في حيّ لم أكن أعرفه، وكنت بصدد زيارة أحد أقارب والدي البعيدين. حين خرجتُ من بيته، متجها نحو محطة ميترو بورت - مايو، تقابلنا في نهاية جادة لاغراند أرمي. تفرستُ في وجهها، وثبّتتْ في وجهي نظرَها القلِق، كما لو أنني فاجأتُها في وضعية محرجة. مددتُ لها يدي، وأنا أقول لها: "لقد التقينا من قبل في كوندي". وتصورت، بشكل مفاجئ، كما لو أن المقهى يوجد في الطرف الآخر من العالَم. أظهرت ابتسامة فيها بعض إحراج، وقالت: "أي نعم... في كوندي". حدث هذا اللقاء بُعيْد

ظهورها في المقهى لأول مرة. لم تكن قد التقت بعدُ بالآخرين كما أن زكريا لم يكن قد منحها بعدُ اسم لوكي. قلت: "غريبٌ مقهى كوندي، أليس كذلك؟". حرّكتْ رأسها علامةً على الموافقة. خطونا معا بضع خطوات وقالت لي بأنها تسكن غير بعيد من المكان، ولكنها لا تحب على الإطلاق هذا الحي. كنت غبيا، فقد كان باستطاعتي أن أعرف في هذا اليوم اسمَها الحقيقي. ولكننا افترقنا عند بورت مايوت، بالقرب من مدخل الميترو، وظللت أنظر إليها وهي تبتعد في اتجاه نوبي وغابة بولوني، بمشية، بدت أكثر فأكثر بطيئة، كما لو أنها تمنح الفرصة لشخص ما بأن يمسك بها. اعتقدتُ أنها لن تعود أبدا إلى كوندي، وأني لن أحصل أبدا على أخبارها. اختفت في ما كان يطلق عليه بووينغ "سرّيّة المدينة الكبيرة" والتي كان يدّعي أنه يناضل ضدها بملء صفحات دفتره بالأسماء. وهو دفتر بغلاف أحمر مغلف بمادة البلاستيك يتضمن مائة وتسعين صفحة. وللصراحة فإن الأمر لم يكن مفيدا. إذ حين نتصفح الدفتر، فإنه ما عدا أسماء وعناوين عابرة، لا يمكن معرفة شيء عن كل تلك الأسماء ولا عني. ربما كان القائد يعتقد أن وضع أسمائنا و"تثبيتنا" في مكان ما، شيء يكتسي أهمية كبيرة. أما عدا هذا فلم نكن في مقهى كوندي نطرح الأسئلة على بعضنا البعض في ما يتعلق بأصولنا. كنا في مقتبل الشباب، ولم يكن لدينا ماضٍ يمكن أن نكشف عنه، وكنا نعيش في الحاضر. ولكن الزبائن الأكبر سنا، آدموف وبابيلي أو الدكتور فالا، لم يكونوا يُشيرون أبدا إلى ماضيهم. وكانوا يكتفون بالتواجد، هنا، بيننا. اليوم، فقط، وبعد كل هذا الزمن، أشعر بالندم، لأنه كان بودي لو أن بووينغ كان أكثر دقّة في دفتره فكرّس لكل واحد مذكرة بيوغرافية صغيرة. هل كان يعتقد، حقيقة، أن اسما وعنوانا يكفيان، لاحقا، للعثور على خيط حياة ما؟ خصوصا حين

يـــتعلق الأمـــر باسم شخصي بسيط غير حقيقي؟ "لوكي. 28 نيسان، الساعة الثانية بعد الظهر." كان يشير أيضا إلى الأمكنة التي كان يجلس فيها، كل يوم، الزبائن حول الطاولات. أحيانا لم يكن يرد أي اسم ولا لقـــب. في شهر حزيران من هذه السنة أشار ثلاث مرات إلى "لوكي جالـــسة مع الأسمر ذي المعطف المصنوع من جلد الأيّل". لم يطلب من هـــذا الـــشخص أن يُعرّفه باسمه، أو أنه رفض. وعلى ما يبدو فإن هذا الـــشخص ليس من رواد هذا المقهى. الأسمر ذو المعطف المصنوع من جلد الأيّل ضاع إلى الأبد في شوارع باريس، وبووينغ لم يستطع سوى تثبيت ظله خلال بعض ثوان. كما توجد بعض أغلاط في دفتره. انتهى بـــي الأمر إلى النجاح في تثبيت نِقاط معالم أكّدت فكرتي التي ترى أنهـــا لم تـــأتِ لأول مـــرة إلى كوندي في يناير كما يُحاول أن يقنعنا بووينغ. أمتلك تذكارا عنها قبل هذا التاريخ. القائد لم يبدأ في الإشارة إلـــيها إلا بعـــد أن أطلق عليها الآخرون اسم لوكي، وأفترض أنه إلى حـــدود هـــذا التاريخ لم يكن قد اكتشف حضورها. لم تستحقَّ حتى إشـــارة عابـــرة من قبيل "الساعة الثانية بعد الظهر. سمراء ذات عينين خضراوين"، مثل حال الأسمر ذي المعطف المصنوع من جلد الأيل.

في شـــهر أكتوبر من السنة التالية بدأ ظهورها. اكتشفتُ في دفتر القائد نقطة مَعْلم: "15 أكتوبر. الساعة التاسعة ليلا. عيد ميلاد زكريا. يجلـــس إلى مائدتـــه: أنـــيت ودون كارلوس وميراي ولاهوبا وفْريد وآداموف." أتذكر جيدا هذه المناسبة. كانت جالسة إلى مائدتهم. لماذا لم يدفـــع الفـــضول بووينغ إلى أن يسألها عن اسمها؟ الشهادات هشّة ومتناقـــضة، ولكني واثق من حضورها في تلك الليلة. وقد أثار ذهولي كـــل ما يجعلها غير مرئية في نظر بووينغ، من خجلها وحركاتها البطيئة وابتسامتها وبشكل خاص صمتها. كانت جالسة بالقرب من آدموف.

ربما بسببه جاءت إلى مقهى كوندي. التقيت في كثير من المرات بآدموف في محيط الأودّيون، وأيضا، وبعيدا عنه، في حي سانت - جوليان - لو - بوفر. وكان في كل المرات يتمشى متكئا على كتف امرأة شابة. أعمى في كنف من يقوده، على الرغم من أنه كان يبدو أنه يلاحظ كل شيء، بنظرة كلب مأساوي. وكان يبدو لي، في كل مرة، أنه مع امرأة شابة غير التي كانت كدليلة أو ممرضة. لماذا لا يتعلق الأمر بلوكي؟ وتحديدا، في هذه الليلة، خرجت لوكي من المقهى مع آدموف. رأيتهما ينزلان الشارع الفارغ باتجاه الأودّيون، ويد آدموف على كتف لوكي وهو يتقدم بخطاه الميكانيكية. من رأى المنظر يمكن أنه تصور أنها كانت تخاف من التقدم بسرعة، وكانت تتوقف، أحيانا، كما لو أنها تفعل ذلك من أجل أن يستعيد تنفسه. في مفترق طرق الأودّيون شدّ آدموف على سدها بطريقة فيها شيءٌ من الوقار، ثم اندفعت إلى فم الميترو. واصل مسيره المسرنم بشكل مستقيم باتجاه سانت-أندري-ديزار. وهي؟ بدأت ترتاد لوكوندي في الخريف. والأمر من دون شك ليس من قبيل الصدفة. الخريفُ، بالنسبة لي لم يكن أبدا فصلا حزينا. الأوراق الميتة والأيام التي تقصر أكثر فأكثر لم تُوحِ لي أبدا بنهاية شيء ما، بل على العكس بانتظار المستقبل. يوجد كهرباء في الهواء، في باريس، في مساءات أكتوبر حين انسدال الليل، وحتى حين تمطر السماء. لا تسودُّ الدنيا في عينيّ في هذه الساعة، ولا الإحساس بهروب الزمن. لديّ الانطباع بأن كل شيء ممكنٌ. السنة تبتدئ في شهر أكتوبر. يتعلق الأمر بالعودة إلى المدارس وأعتقد أنه موسم المشاريع. إذاً فإنها إن كانت قد جاءت إلى كوندي في شهر أكتوبر فلأنها قطعت مع جزء من حياتها وأرادت أن تصنع ما يُطلَق عليه في الروايات: جلدا جديدا. فضلا عن كل هذا توجد إشارة تثبت

أنـــه لا يمكن أن أكون مخطئا. ففي كوندي مُنحت اسما جديدا. بل إن زكريا تحدّث في هذا اليوم عن معمودية. أي عن ولادة جديدة، بصيغة من الصيغ.

أما فيما يخص الأسمر ذا المعطف المصنوع من الجلد فهو لا يظهر، للأســـف، في الـــصُّوَر التي التُقِطت في كوندي. ينتهي الأمر في معظم الأحـــيان إلى التعرف على شخص ما بفضل صورة ما. يتم نشرها في صـــحيفة مـــا وتتم الدعوة إلى الشهود. هل كان عضوا في المجموعة لم يكن بووينغ يعرفه فمنعه الكسل من تسجيل الاسم؟

مـــساء الأمس، تصفحتُ بانتباه كل صفحات الدفتر. "لوكي مع الأسمر ذي المعطف المصنوع من جلد الأيّل". وكم كانت مفاجأتي حين لاحظتُ أن القائد لم يتحدث عن هذا المجهول في شهر حزيران، فقط. في أسفل الصفحة خربش هذه الملاحظة على عجل: "24 مايو. لوكي بجوار الأسمر ذي المعطف المصنوع من جلد الأيّل". كما أننا نعثر على نفس التفسير مرتين في شهر أبريل. كنتُ قد سألتُ بووينغ عن السبب الـــذي جعله يكتب اسمها بالقلم الأزرق، كلّما تعلق الأمر بها، كما لو أنـــه يريد تمييزها عن الآخرين. لم يكن هو وراء هذا الأمر. ذات يوم، كـــان فـــيه واقفـــا إلى الكونطوار وهو يسجل في دفتره أسماء الزبائن الموجـــودين في المقهـــى، فاجـــأه في عمله أحد الحاضرين وكان واقفا بالقـــرب مـــنه: رجل في الأربعين من عمره وهو من معارف الدكتور فالا. كان يتحدث بصوت رخيم ويدخن سجائر شقراء. شعر بووينغ بالـــثقة فقـــال له بعض كلمات عن كتابه الذي كان يطلق عليه اسم الكـــتاب الذهبـــــي. بدا كما لو أن الرجل اهتم بالأمر. كان "ناشرا للكـــتب الفنية". نعم كان يعرف الرجل الذي التقط، قبل قليل، صُوَرا في مقهـــى كوندي. اقترح نشر ألبوم عن هذه الصور، يكون عنوانه:

مقهـــى في بـــاريس. هل سيتكرم القائد بإعارته دفتره إلى اليوم التالي، والـــذي يمكن أن يساعده في اختيار شروحات الصُّوَر؟ في اليوم التالي أعـــاد الدفتـــر إلى بووينغ ولم يظهر في كوندي أبدا. وكم كان ذهول القائد عندما لاحَظَ أن اسم لوكي تم التسطير عليه بالقلم الأزرق. كان يـــريد أن يعرف عن الموضوع أكثر، وذلك بطرح العديد من الأسئلة على الدكتور فالا في ما يخص موضوع ناشر الكتب الفنية. أصيب فالا بالذهـــول. "آه، قـــال لك إنه ناشر للكتب الفنية؟" كان يعرفه بصفة سطحية، بسبب لقاءات عديدة جمعت بينهما في شارع سانت - بونوا في لامـــالين وفي حانة مونتانا ولعب معه عدّة مرات...421. كان هذا الشخص يرتاد هذا الحي منذ فترة طويلة. اسمه؟ كيزلي. بدا وكأنّ فالا مُحـــرَجٌ بعض الشيء من الحديث عنه. وحين أشار بووينغ إلى دفتره وإلى ســـطور القلـــم الأزرق تحت اسم لوكي، اجتاز تعبيرُ قلقٍ نظرة الدكـــتور. وقد عبر هذا التعبير بسرعة. ثم ابتسم. "هو ربما يهتم بالمرأة الـــشابة... إنها جميلة جدا... ولكن أي فكرة مضحكة في ملء دفترك بكـــل هـــذه الأسماء... أنت تثير ضحكي، أنت ومجموعتك وتجاربكم الباتافيـــزيقية[1]..." كان يخلط بين كل شيء، بين الباتافيزيقا والمذهب الحـــرفي والكـــتابة الأوتوماتيكية والخطوط الكبيرة وكل التجارب التي كـــان يعيشها زبائن كوندي الأكثر تعلقا بالأدب، كبووينغ وجون- ميـــشيل وفـــريد وبابيلي ولاروند أو آدموف. وأضاف الدكتور فالا بصوت خفيض: "ثم إنّه خطير القيام بما تقوم به". وأضاف: "إن دفترك يـــشبه سجلّ الشرطة أو دفاتر مسودة في مركز شرطة، كما لو أنه تم اعتقالنا جميعا في مداهمة شرطة".

---

(1) Pataphysique تعني علم الحلول المتخيَّلة.

احـــتج بوويننغ محاولا أن يفسر له نظريته حول النقاط الثابتة، ولكـــنه انطلاقا من هذا اليوم انتابه شعور بأن فالا يَحْذر منه بل ويريد تجنبه.

لم يكـــتف كريـــزلي بوضع خط على اسم لوكي، بل كان يضع خطين باللون الأزرق في الدفتر كلما ورد "الأسمر ذو المعطف المصنوع من جلد الأيّل". عكّر الأمر كثيرا من مزاج بوويننغ وظل يحوم في الأيام التي تلت حول شارع سانت-بونوات على أمل أن يعثر على هذا الذي يدّعـــي كونه ناشرا للأعمال الفنية في لامالين أو في حانة مونتانا، وأن يطلـــب تفسيرا للأمر. لم يعثر عليه أبدا. وهو بدوره اضطر، بعد فترة، لمغـــادرة فرنسا تاركا بمعيتي دفتره، كما لو أنه أراد مني مواصلة بحثه. ولكن فات الأوان، اليوم. ثم إنه إذا كانت هذه الحقبة لا تزال حيّة في ذاكرتي فبسبب أسئلة ظلت من دون جواب.

في ساعات الفراغ من النهار، لدى العودة من المكتب، وغالبا ما تحـــدث في عـــزلة أيام الآحاد، تعود إليّ بعض التفاصيل. من بين كل اهتماماتي أحاول تجميع بعض التفاصيل وتسجيلها في دفتر بوويننغ على الـــصفحات الـــتي ظلت بيضاء. أنا أيضا، أنطلق في البحث عن النقاط الثابـــتة. يتعلق الأمرُ بتسلية، كما يفعل آخرون بالكلمات المتقاطعة أو بلعبة النجّاحات. أسماء وتواريخ الدفتر تساعدني كثيرا، تتطرق من فترة لأخرى لفعل معين، ما بعد ظهيرة ممطرة أو مشمسة. ولقد كانت لديّ دائمـــا حـــساسية تجاه الفصول. ذات مساء دخلت لوكي إلى مقهى كـــوندي، وشـــعر رأسها مبلل بسبب وابل من الأمطار أو بالأحرى بسبب أمطار نوفمبر أو بداية الربيع التي لا تتوقف. كانت مدام شاذلي تـــشتغل خلف الكونطوار في ذلك اليوم. صعدت إلى الطابق الأول من شـــقتها المتواضعة، للبحث عن فوطة حمام. وكما أشار إلى ذلك الدفتر

فقـــد تجمع حول نفس الطاولة، في ذلك المساء، زكريا وآنيت ودون كارلـــوس ومـــيراي ولاهوبا وفريد وموريس ورافائيل. تناول زكريا الفوطة ومسح بها شعر لوكي قبل أن يعقدها كعمامة من حول رأسها. جلست إلى طاولتهم فشرّبوها مشروبا ممزوجا بالماء الساخن والحامض، وظلت معهم إلى ساعة متأخرة والعمامة فوق رأسها. وعند الخروج من كوندي، نحو الساعة الثانية صباحا، كانت السماء لا تزال تمطر. ظللنا لـــبعض الوقت في كوة المدخل وكانت لوكي لا تزال تحتفظ بعمامتها. أطفـــأت مدام شاذلي ضوء القاعة وتوجهت للنوم. فتحت نافذتها التي تعلـــو الـــدور الأرضي واقترحت علينا أن نصعد عندها للاحتماء من المطر. ولكن رافائيل قال لها بلطف شديد: "ألا تتصورين، سيدتي، أنه يـــتوجب علينا أن نتركك تنامين..." كان رجلا أسمر جميلا، أكبر منا ســـنّا، وكان زبونا مواظبا على مقهى كوندي، وكان زكريا يسميه: "الفهـــد" بسبب مشيته وحركاته الرشيقة. كان قد نشر، مثل آدموف ولاروند، العديد من الكتب، ولكن لم نكُن نتحدث عنها أبدا. كان ثمة لغـــزٌ يحـــوم حـــول هذا الرجل وكنا نعتقد أن له علاقات مع أوساط مـــشبوهة. ضـــاعف المطر من هطوله، أمطار غزيرة مصحوبة برياح موسمية، ولكن لم يكن الأمر خطيرا على الآخرين، لأنهم كانوا يسكنون في نفـــس الحـــي. عمّا قريب لن يتبقّ سوى أنا ولوكي ورافائيل تحت ســـقيفة المقهـــى. قـــال مـــوريس رافائيل مقترحا: "هل أستطيع أن أصـــطحبكم في سيارتي؟". عَدَوْنا تحت المطر حتى أسفل الشارع حيث كانت سيارته جاثمة، وهي من نوع فورد سوداء قديمة. جلست لوكي بالقـــرب منه، وجلست أنا على المقعد الخلفي. سأل موريس رافائيل: "مـــن أُوصلُه في البدء؟" أعلمتْه لوكي بشارعها، مشيرة إلى أنه يوجد وراء مقـــبرة مونتـــبارناس. قـــال رافائـــيل: "إذاً فأنـــت تسكنين في

اليمــــبوس[1]". أعتقد أن لا أحد منا عرف ما الذي يعنيه "اليمبوس". طلـــبتُ منه أن يضعني بعد تجاوز سياج ليكسمبورغ، في ركن شارع فال - دي - غراس. لم أكن أريد أن يعرف بالتحديد مسكني خوف أن يطرح عليّ أسئلته.

صافحتُ لوكي وموريس رافائيل وأنا أقول في نفسي إنه لا أحد مـــنهما يعرف اسمي الشخصي. كنت زبونا محتشما جدا في كوندي، وكثيرا ما كنت أبقى على حدة، مكتفيا بالإنصات للجميع. كان الأمر يكفـــيني. كنت أشعر بالراحة بينهم. مقهى الكوندي كان بالنسبة لي ملجأ من كل ما أتحسّبهُ من رتابة الحياة. سيكون ثمة جزءٌ منّي - الجزء الأفضل - الذي سوف أكون مضطرا، يوما ما، لأتركه هناك. قال لي مـــوريس رافائـــيل: "أنت على حق في السكن في حيّ فال - دي - غراس."

ابتسم في وجهي، وبدت لي الابتسامة معبرة عن اللطافة والسخرية في آن واحد.

قالت لوكي: "إلى لقاء قريب".

خــــرجت مــــن الــــسيارة وانتظرتُ حتى اختفت، هناك في اتجاه بورت - روايال، لأرجع أدراجي. وفي الحقيقة، لم أكن أسكن في حي فــــال - دي - غـــراس، وإنما أسفل، في عمارة 85، بولفار سانت - ميـــشيل، حـــيث عثرتُ عند وصولي إلى باريس، على غرفة، بفضل معجزة. من النافذة كنت أرى الواجهة السوداء لمدرستي. في هذه الليلة لم أكـــن أستطيع أن أصرف بصري عن هذه الواجهة الضخمة ودرج المدخل الحجري الكبير. ما الذي سيقولونه لو علموا أنني أتمشى تقريبا، كـــل يـــوم، في هذا الدرج وأني طالب في المدرسة العليا للمعادن؟ هل

---

(1) يمبوس: مقام أرواح البررة قبل مجيء السيد المسيح.

يعـــرف زكريا ولاهوبا وعلي شريف أو دون كارلوس، تحديدا، ماهية مدرسة المعادن؟ يجب عليّ أن أحتفظ بسرّي وإلا فإنهم سيسخرون أو يَحْـــذرون منّـــي. مـــا الذي تمثله مدرسة المعادن بالنسبة لآدموف أو لارومد أو موريس رافائيل؟ لا شيء، من دون شك. سينصحونني بألا أرتاد هذه المدرسة. إذا كنت أقضي وقتا طويلا في كوندي فلأني أريد أن يمـــنحوني مـــثل هذه النصيحة، مرة واحدة للأبد. يمكن أن تكون لوكي وموريس رافائيل قد وصلا إلى الجانب الآخر من المقبرة، إلى هذه المنطقة التي سمّاها موريس رافائيل بـــ "اليمبوس". أنا ظللتُ في الظلام، واقفـــا، إلى النافذة، أتأمل الواجهة السوداء. من رآها تَصوَّرها محطةً في منطقة ريفيّة تم تغيير وظيفتها. لاحظتُ على حيطان العمارة المقابلة آثار رصـــاص، كما لو أنه أُطلق الرصاص على شخص ما. رددت بصوت خافـــت هذه الكلمات التي أصبحت، أكثر فأكثر، غير عادية: المدرسة العليا للمعادن.

كنت محظوظا أن يكون هذا الرجل الشاب جالسا بقربـــي إلى طاولة كوندي وبدأنا، بطريقة طبيعية، تبادل أطراف الحديث. كانت أول مرة آتي فيها إلى هذا المكان، وكان من الممكن أن أكون أباه. الدفتر الذي فهرس فيه، يوما بعد آخر، ليلة بعد أخرى، منذ ثلاث ســـنوات، زبائن كوندي سهّل عليّ المأمورية. أنا نادم لأني أخفيت عـــنه الـــسبب الدقيق وراء رغبتي في قراءة هذا الكتاب الذي تكرم بإعـــارتي إياه. لكن هل كذبتُ عليه حين قلت له إنني ناشر للكتب الفنية؟

لاحظـــتُ جـــيدا أنه يصدّقني. إنها ميزة أن يكون المرء أكبر من الآخـــرين بعشرين سنة. إذ أنهم لا يعرفون ماضيك. وحتى إذا طرحوا عليك بعض الأسئلة الطائشة عما كانت عليه حياتك إلى حد الساعة، تـــستطيع أن تخـــتلق كل شيء. حياة جديدة. لن يكلفوا أنفسهم عناء التحقق من الأمر. وبقدر المضيّ في الحديث عن هذه الحياة المتخيلة، فإن نفحات كبيرة من الهواء المنعش تجتاز مكانا مغلقا حيث كنت تختنق فيه منذ فترة طويلة. نافذة تنفتح فجأة، الشباك الخارجي يصفق من الريح. ها هو المستقبل، من جديد، أمامك.

ناشر كتب فنية. جاءتني الفكرة من دون تفكير. لو سُئلتُ قبل أكثر من عشرين سنة عمّا سأصبح في المستقبل، كنتُ سأُتمتم: ناشر كتب فنية. ها، أقول هذا، اليوم. لم يتغير شيء. كل هذه السنوات تمّ إلغاؤها.

إلا أنـــي لم أنـــس الماضي تماماً. فقد بقي هناك بعض الشهود، وبعض الناجين من بين الذين عاصَرونا. ذات مساء سألتُ الدكتور فالا في مقهـــى مونتانا عن تاريخ ميلاده. ولدنا معا في نفس السنة. وذكّرتُه بلقائـــنا في نفـــس الحانة، في الماضي، حين كان الحيّ لا يزال في أوج توهجه. وعلى كل فإنه يبدو لي أنني التقيته قبل هذا التاريخ، في أحياء أخـــرى مـــن باريس، على الضفة اليمنى. كنت واثقا من الأمر. طلب فالا، بصوت حاد، من النادل ربع ليتر من ماء فيتيل المعدني، قاطعا عليَّ الكـــلام في اللحظـــة التي كنتُ سأتطرّقُ فيها لذكريات سيئة. لزمتُ الصمت. إننا نعيش تحت رحمة بعض أنواع الصمت. نحن نعرف الشيء الكـــثير عـــن بعـــضنا البعض. ولهذا نحاول أن نتجنب بعضنا البعض. الأفضل هو ألا نلتقي أبدا.

يـــا لهـــا من مصادفة غريبة... التقيتُ فالا، بعد ظهر هذا اليوم، حـــين اجتـــزتُ لأول مرة عتبة مقهى كوندي. كان جالسا إلى طاولة بمعـــية شخـــصين أو ثلاثة. ألقى في وجهي نظرة العاشق لطيب العيش القلقـــة وهـــو بحضور شبح. ابتسمت في وجهه. صافحته من دون أن أنـــبس بكلمـــة. أحسستُ أنّ أدنى كلمة من قبلي يمكن أن تجعله في وضـــعية غـــير مريحة تجاه أصدقائه الجدد. بدا مرتاحا من صمتي ومن تكتمـــي حـــين جلستُ على مقعد مصنوع من فرو الخُلد، في الطرف الآخـــر مـــن القاعة. من هذا المكان كان بإمكاني مراقبته من دون أن يلتقـــي نظـــره بنظري. كان يتحدث إليهم بكلام خافت، وهو يميل بجسده نحوهم. هل كان يخشى أن أسمع حديثهم؟ من أجل تمرير الوقت قـــررتُ أن أتخيل كل الجُمَل التي سأتلفظ بها لهجة فيها اصطناع حب الحـــياة الاجتماعـــية الموسرة والتي كانت تقطّر من جبينه قطرات من العـــرق. "هل ما زلت تعمل طبيبا؟" وبعد أن أتوقف قليلا عن الكلام

أعاود: "قل لي، هل ما زلت تعمل في كي لويز-بليريوت؟ اللهمّ إلا إذا كنت قد حافظت على عيادتك في شارع موسكو... وماذا عن إقامتك في سجن فريسنس منذ فترة طويلة، أتمنى ألا أكون قد تسببت لك في نتائج ثقيلة..." أوشكتُ أن أنفجر ضاحكا، وحدي، في ركني. إننا لا نشيخ. مع السنوات التي تمرّ، ينتهي الأمر بكثير من الناس والأشياء إلى أن يظهروا أمامكم مثيرين للضحك وجد ساخرين بحيث تلقون في أوجههم نظرة طفل.

ظللتُ، خلال هذه المرة الأولى، فترة طويلة أنتظر في الكوندي. لم تأت. يجب التزام الصبر. ربما سألتقيها يوما آخر. راقبت مرتادي المقهى. معظمهم لم يتجاوز سن الخامسة والعشرين، ولو أن روائيا من القرن التاسع عشر رأى الأمر لتحدّث عن "الطالبة البوهيمية". لكن القليل من بينهم، في نظري، كانوا يتابعون دراستهم في السوربون أو في مدرسة المعادن. عليّ أن أعترف أن مراقبتهم عن قرب تجعلني أُحسّ بالقلق على مستقبلهم.

دخل رَجُلان في وقت متقارب. آدموف وهذا الرجل الأسمر ذو المشية الرشيقة الذي كتب عدّة مؤلفات تحت اسم موريس رافائيل. كنت قد رأيتُ آدموف من قبل. في الماضي كان يتواجد تقريبا، كل يوم، في مقهى أولد نايفي ولا يمكن نسيان نظراته بسهولة. أعتقد أنني ساهمت في تسوية أموره، في الوقت الذي كنت لا أزال أحتفظ فيه باتصالات مع الاستخبارات العامة. أما موريس رافائيل فقد كان هو الآخر متعوَدا على ارتياد حانات الحي. قيل أنه كانت له مشاكل بعد الحرب حين كان يحمل اسما آخر. في هذه الفترة كنتُ أشتغل لفائدة

السيد بليمانت. أتى كلاهما إلى الكونطوار، ظل موريس رافائيل واقفا، مستقيما، فيما ارتفع آدموف على كرسي وهو يبدي حركة ألَم. لم يُلاحظ وجودي. على كل حال، ألا يزال وجهي يذكره ببعض شيء؟ التحق بهما في الكونطوار ثلاثة من الشباب ومن بينهم فتاةٌ شقراءُ تلبس معطفا مطريا وقَصّة شَعَر. مدّ لهم موريس رافائيل علبة سجائر وتأملهم بابتسامة مسلية، في حين أن آدموف بدا أقلّ ترحيبا بهم. منْ رأى نظرته الحادة كان سيعتقد أنه أصيب بالرعب من حضورهم.

كنت أمتلك صورتين لجاكلين ديلانك في جيبي... من الوقت الذي كنتُ أشتغل فيه لفائدة بليمانت، كان يتفاجأ دائما من سهولة تحديد كل الوجوه. كان يكفيني أن أرى، مرة واحدة، وجهاً كي يظل محفورا في ذاكرتي، وبليمانت يمزح معي حول هذه القدرة على التعرف الفوري على شخص من بعيد، حتى من ثلاثة أرباع جسمه، بل وحتى من ظهره. لم أكن أشعر بأدنى قلق. بمجرد ما أن تلج حتى أعرف أن الأمر يتعلق بها.

استدار الدكتور فالا في اتجاه الكونطوار، فالتقت عينانا. أصدر حركة ودية بيده. جاءتني فجأة رغبة في التوجه إلى طاولته ومصارحته برغبتي في طرح سؤال سري. كنت سأنتحي به جانبا وكنت سأريه الصُّوَر: "هل تعرفها؟" وللحقيقة كان سيكون مفيدا لي قليلا في معرفة أشياء عن هذه الفتاة من قبل أحد زبائن مقهى كوندي.

ما أن عرفت عنوان فندقها، حتى توجهت إلى عين المكان. اخترت ساعات الفراغ في ما بعد الظهيرة. ثمة احتمال كبير في أن تكون غائبة. على الأقل، هذا ما أتمناه. وهكذا أستطيع أن أطرح بعض

الأسئلة المتعلقة بها على مكتب الاستقبال في الفندق. كان نهارا خريفيا مُشمسا وكنتُ قررتُ التوجه مشيا على القدمين. انطلقت من ضفاف نهـــر الـــسّين متوغّلا، ببطء، في داخل المدينة. كانت الشمس مُواجهة لعـــينيّ في شارع شيرش ميدي. دخلتُ حانة شيان كي فيم[1] وطلبت كأســـا مـــن الكونياك. كنت قلقا. تأملتُ من خلف الزجاج جادة "مـــين". يـــتوجب عليّ اتباع الرصيف الأيسر، ثم أصل إلى الهدف. وبمقـــدار مـــا كنتُ أتتبع الجادّة كنتُ أستعيد هدوئي. كنت متأكدا، تقـــريبا، من غيابها، وعلى كل حال فأنا سألِج الفندق، هذه المرة، ليس مـــن أجل طرح الأسئلة. سأحوم حول الفندق، كما نفعل حين نريد كشف شيء ما. كان لديّ الوقتُ، وكنتُ قد قبضت الثمن للقيام بما أفعله.

حـــين وصـــلتُ شارع سيلس قررتُ أن أقف على جليّة الأمر. شارع هادئ ورمادي ذكّرني ليس بقرية ما أو ضاحية وإنما بهذه المناطق الغامـــضة الـــتي نـــسميها: "جزء البلاد الخلفي". اتجهت إلى مكتب الاســـتقبال. لم يكن ثمة أحد. انتظرت ما يقارب عشر دقائق على أمل ألا تظهـــر. انفـــتح بابٌ، وتقدمت امرأة سمراء ذات شعر قصير وكل ملابسها سوداء، إلى مكتب الاستقبال. قلت لها بصوت لطيف:

"يتعلق الأمر بجاكلين ديلانك".

كنت أعتقد أنها مسجلة في الفندق باسمها الشخصي.

ابتسمت في وجهي وقدمت لي مظروفا تناولته من إحدى الرفوف الموجودة من خلفها.

"هل أنت السيد رولاند؟"

---

(1) معناها الكلب الذي يُدخّن.

مـــن يكـــون هـــذا الشخص؟ صدرت مني، بالصدفة، إيماءة من رأســـي. مـــدت لي المظـــروف الذي كتب عليه بحبر أزرق: من أجل رولاند. لم يكن المظروف ملصقا. قرأت على ورقة كبيرة:

رولانـــد، تعال للقائي ابتداء من الساعة الخامسة مساء في كوندي. وإلا فهاتفني في أوتوي 15 – 28 واترك لي رسالة.

كانت الورقة موقعة باسم لوكي. هل هو اسم التصغير لجاكلين؟

أعدت طي الرسالة ودسستها في الظرف الذي أعدته إلى السيدة السمراء.

سامحيني... يوجد خلط... الرسالة ليست لي".

لم تتذمر وأعادت الرسالة إلى الدرج بحركة آلية.

"هل تقيم جاكلين ديلانك، هنا، منذ فترة طويلة؟"

ترددت، لحظة، ثم أجابت بنبرة فيها بشاشة:

"منذ شهر تقريبا.

– وحيدة؟

– نعم."

أحســـستُ أنهـــا غير مبالية وأنها مستعدة للرد على كل أسئلتي. كانت تسلط عليّ نظرة فيها الكثير من السأم.

قلتُ لها:

"أشكرك.

لا شكر على واجب."

كـــنت أفـــضّل ألاّ أتأخر، فرولاند يمكنه أن يصل في أيّة لحظة. الـــتحقت بجادة "مين" وتتبعتها في الاتجاه المعاكس لما فعلته من قبل. في

مقهـــى شيان كي فيم طلبت كأس كونياك من جديد. بحثت في دليل الهاتف عن عنوان كوندي. كان يوجد في حي أودِّيون. الساعة الرابعة بعد الزوال، وأمامي بعض من الوقت. هاتفت أوتوي 15-28. صوت جـــافّ أشـــبه بصوت الساعة الناطقة: "هنا كراج لافونتين...هل من خدمـــة؟" سألت عن جاكلين ديلانك. "تغيبت لبعض الوقت، هل من رســالة؟" كانـــت تنتابني رغبة في إقفال الهاتف، لكني تمالكت نفسي وأجبت: "لا. ليس عندي رسالة. شكرا."

يجـــب قبل كل شيء تحديد المسارات التي يسلكها الناس، بأكبر قـــدر مـــن الدقة، كي نتعرف عليهم بشكل أفضل. رددت مع نفسي بـــصوت خافـــت: "فـــندق شارع سيلس. كاراج لافونتين. مقهى كـــوندي. لوكـــي." ثم هـــذا الجزء من نوبي ما بين غابة بولوني ونهر الـــسين، هناك حيث منحني السيد موعدا كي يتحدث إليّ عن زوجته، التي تدعى جاكلين شورو، واسمها قبل الزواج، هو ديلانك.

نـــسيت الـــشخص الذي نصحه بالتوجه إليّ. ليس الأمر مُهمّا. من دون شـــك عثـــر علـــى عنواني في دليل الهاتف. ركبت الميترو قبل وقت المـــوعد. كانت طريق الميترو مُباشِرة. نـــزلت في محطة سابلونس وتمشيتُ ما يقرب من نصف ساعة، في محيط المكان. تعوّدت التعرف على الأماكن قبل الدخول الفوري في صلب الموضوع. في الماضي، كان بليمانت يلومني علـــى الأمـــر ويرى أنني أضيّع من وقتي. كان يقول لي إنه من الأفضل أن ألقـــي بنفـــسي في الماء من أن أحوم حول المسبح. أنا كنت أفكر بطريقة تناقض تلك. لا حركة فيها خشونة مبالغ فيها، ولكن نوع من سلبية ومن بطء بفضله يمكن للمرء أن يتشرّب روح الأمكنة.

كانـــت تفـــوح في الجوّ رائحة الخريف والريف. تتبعت الجادة المحاذية لحديقة الإكليماتاسيون Jardin d'Acclimatation ولكن على الجانـــب الأيـــسر، أي جانب الغابة وممر الفرسان، وكان بِوُدّي لو أن الأمر كان مجرد نـــزهة.

السيد جون – بيير شورو هاتفني كي يثبّت معي موعدا بصوت لا نبرة فيه، وجعلني أفهم من كلامه أن الأمر يتعلق بزوجته. وكنت كلمـــا اقتـــربت مـــن بيته أتخيله وهو يتمشى مثلي على طول ممر الفرســـان ويـــتجاوز دوّارة حديقـــة الإكليماتاسيون. كم انقضى مـــن عمـــره؟ نـــبرة صوته بدت لي شبابية، ولكن الأصوات دائما مضلّلةٌ.

إلى أيّ مأســـاة أو إلى أي جحيم حياة زوجية يقودني؟ أحسستُ بـــنوع من الإحباط يجتاحني، ولم أكن واثقا جدا من الذهاب إلى هذا الموعد. توغلت في الغابة متجها إلى بركة سانت–جيمس، إلى البحيرة الصغيرة التي يرتادها المتزلجون أثناء الشتاء. كنتُ المتنـــزِّه الوحيد وكان عـــندي انطباع أني أُوجَد بعيدا عن باريس، في مكان ما من سولوني. مـــرة أخـــرى استطعت أن أُغالب الإحباط. فضولٌ مهني كبير أوقف جـــولتي في الغابـــة وجعلني أعود إلى طرف منطقة نويي. لا سولوني. نويي. تخيلتُ أوقاتا طويلة ممطرة لفترة ما بعد الظهيرة في حياة الزوجين شـــورو في نويي. وهناك، في سولوني، تُسمع أبواق الصيد، في الشفق. هـــل كانـــت زوجته تركب على ظهر فرس؟ انفجرتُ ضاحكا وأنا أتذكر ملاحظة بليمانت: "أنت، يا كيزلي، تنطلق بسرعة قصوى، كان عليك أن تؤلف روايات."

كـــان يقطن في الحد الأقصى، في باب مدريد، في عمارة حديثة بمـــدخل زجاجي كبير. طلب مني أن أذهب إلى أقصى البهو، في اتجاه اليـــسار. وسوف أجد اسمه على الباب. "إنها شقّة في الطابق الأرضي." تفاجـــأتُ من الحزن الذي نطق به "الطابق الأرضي". تلا ذلك صمتٌ كما لو ندم على هذا البوح.

سألته: "والعنوان الصحيح؟"

– في 11 جـــادة بريتفيل. هل تسجل؟ في رقم 11... في الرابعة مساء، هل يلائمك؟

تقوّى صوتُه، وأوشك أن يأخذ نبرة مجاملة.

صـــفيحة صـــغيرة مذهـــبة على الباب: جون بيير شورو، فوقها لاحظـــت وجود عين سحرية. دققت الجرس. انتظرت. وهنا، في هذا البهو الموحش والصامت، قلت في نفسي بأني أتيت متأخرا. وإنه انتحر. شـــعرت بالخجل من مثل هذه الفكرة، ومن جديد، الرغبة في التخلي عـــن كل شيء، ومغادرة هذا البهو ومواصلة نـــزهتي في الهواء الطلق، في ســـولوني... دققت الجرس، وهذه المرة ثلاث طَرَقات خفيفة. انفتح الـــباب علـــى الفور، كما لو أنه كان مسمرا خلفها، وهو يراقبني من العين السحرية.

كان رجلا أسمر في الأربعين من عمره، وكان شعر رأسه قصيرا، بيـــنما كانـــت قامته أكبر من المتوسط. كان يرتدي بدلة زرقاء غامقة وقميصا أزرق سماويا بياقة مفتوحة. قادني إلى ما يشبه قاعة استقبال من دون أن يـــتفوه بكلمة. أشار إلى كَنَبة، خلف طاولة منخفضة وجلسنا عليها معا، جنبا إلى جنب. كان يجد صعوبة في الحديث. كي أجعله في وضـــعية مريحة قلت له بصوت رخيم، قدر الإمكان: "إذاً، يتعلق الأمر بزوجتك؟"

حـــاول أن يتكلم بلهجة غير مكترثة. وجّه إليّ ابتسامة منطفئة. نعـــم، اخـــتفت زوجته منذ شهرين إثر شجار عادي. هل أنا هو أول شـــخص تحـــدث إلـــيه منذ هذا الافتراق؟ المصراع الحديدي لإحدى الـــنوافذ الكـــبيرة كان مُنْزلا، وتساءلت إذا كان هذا الرجل قد ظلّ سجينا في هذه الشقة خلال شهرين. لكن، عدا المصراع، فلم يكن ثمة أي أثر للفوضى ولا للإهمال في قاعة الاستقبال. وبعد لحظة من تردد، استعاد بعض رباطة جأش.

انتهـــى بـــه الأمر إلى أن يقول أخيرا: "أتمنى أن تتضح الحالة بسرعة."

كـــنتُ أراقـــبه عـــن قرب. عينان صافيتان جدا تحت حاجبين أسودين، ووجنتان عاليتان، ومَنْظر عادي. في هيأته وفي حركاته حيوية رياضية كان يقوّيها الشَّعَر القصير. بكل بساطة من ينظر إليه يمكن أن يتخيله على مركب شراعي، وهو عاري الصدر، كبحّار وحيد. ورغم كثير من الصرامة والإغواء الظاهرَيْن، فقد غادَرَتْه زوجتُهُ.

كـــنتُ أود أن أعرف إنْ كان قد حاول، خلال كل هذه الفترة، العـــثور عليها. لا. لقد هاتفَتْهُ ثلاث أو أربع مرات وأكّدتْ له أنها لن تعـــود. ونصحَتْه، بحرارة، بألاّ يعاود الاتصال بها و لم تمنحه أي تفسير. غيّـــرت مـــن لهجتها. لم تعُد هي نفسَ الشخص. صوت هادئ جدا، وعلى درجة كبيرة من السكينة، وكان يُربكه كثيرا. كانت تفصله عن زوجـــته خمس عشرة سنة. كانت في سن الثانية والعشرين، بينما كان هـــو في سن السادسة والثلاثين. وبقدر ما كان يمنحني هذه التفاصيل، كُنتُ أشتمّ في حديثه حذرا، بل وبرودة، كانت من دون شكّ ثمرة ما يمكـــن تسميته بالتربية الصحيحة. يتوجب عليّ، الآن، أن أطرح عليه أسـئلة محـــددة و لم أعد أعرف إن كان الأمر يستحق العناء. ما الذي

يريده، تحديدا؟ أن تعود زوجته؟ أم يريد، بكل بساطة، أن يفهم أسباب هجـــره؟ ربما يكفيه الأمر. عدا الكنبة والطاولة الواطئة، لم يكن يوجد في قاعة الاستقبال من أثاث آخر. النوافذ الكبيرة تطل على الجادة حيث لا تمر إلا سيارات قليلة جدا، حتى إنه لم يكن مزعجا أن تقع الشُقّة في الطابق الأرضي. انسدل الظلام، أشعل مصباحا ثلاثي القوائم وعاكس النور الأحمر المرتب بجانب الكنبة، على يميني. الضوء جعل عينيّ ترفّان، ضـــوء أبيض جعل الصمت أكثر عمقا. أعتقد أنه كان ينتظر أسئلتي. تربّع في جلسته، وكي أربح الوقت أخرجتُ من جيب معطفي الداخلي دفترا وقلم حبر وسجّلت بعض الملاحظات. "هو في السادسة والثلاثين من عمره، وهي في الثانية والعشرين من عمرها. نوبي. شقة في الطابق الأرضـــي. لا يـــوجد أثـــاث. نوافذ زجاجية كبيرة تطل على جادة بـــروتفيل. لا توجد حركة مرور. بعض مجلات موضوعة على الطاولة الواطـــئة." كـــان ينتظر من دون أن يتفوه بكلمة، كما لو كنت طبيبا يشهر وصفة طبية.

"الاسم الشخصي لزوجتك؟

– ديلانك. جاكلين ديلانك."

ســـألته عـــن تاريخ ومكان ولادة جاكلين ديلانك، وعن تاريخ زواجهمـــا، كذلك. وهل تملك، هي، رخصة سياقة؟ عملا دائما؟ لا. هـــل لا يـــزال لـــديها بعضٌ من العائلة؟ في باريس؟ في الريف؟ دفتر شـــيكات؟ وكان كلما يُجيبني بصوت حزين، كنت أسجّل كل هذه التفاصـــيل التي كانت في معظم الأحيان، التفاصيل الوحيدة التي تشهد على مرور كائن حيّ على الأرض. بشرط أن نعثُر ذات يوم على دفتر يكـــون قد سجّل فيه أحدهم هذه التفاصيل بخطّ صعب القراءة، مثلما هو خطّي.

الآن، يتوجب عليّ أن أطرح أسئلة شائكة من النوع الذي يدخلك حميمية كائن من دون أن تطلب منه الإذن. بأي حق؟

"هل لك أصدقاء؟"

نعم، بعض الأشخاص الذين يلتقيهم بشكل منتظم. تعرّف عليهم في مدرسة للتجارة. البعض منهم كانوا رفاقا، في ثانوية جون-بابتيست-ساي.

وقد حاول أن يفتح شركة عقارية مع ثلاثة من بينهم قبل أن يشتغل مع شركة عقارية زانيتاتشي باعتباره شريك - وكيل.

"هل ما زلت تشتغل فيها؟

- نعم. في 20 شارع السلام."

عبر أي وسيلة نقل يذهب إلى مكتبه؟ كل تفصيل، حتى الذي يبدو عديم الجدوى، يكشف عن شيء. في السيارة. كان من حين لآخر يقوم بتنقلات من أجل زانيكاتي. مدينة ليون. بوردو. لاكوت دازور. جنيف. وجاكلين شورو، واسمها في الولادة ديلانك، هل تبقى وحيدة في نويي؟ اصطحبها معه أحيانا، بسبب هذه التنقلات، إلى لاكوت دازور. وحين كانت وحيدة، كانت تنشغل بأي شيء؟ ألا يوجد، في الحقيقة، شخص ما قادرعلى أن يمنحه معلومة تخصّ اختفاء جاكلين، الزوجة شورو، والتي تحمل اسم ديلانك وهو اسم ولادتها ويعطيه أدنى دليل؟ "لست أدري، أنا، هو بوحٌ تكون قد قامت به في يوم من أيام الكآبة..." لا. ما كان لها أبدا أن تبوح بشيء لأحد وهي كثيرا ما لامته على غياب الطرافة عند أصدقائه. يتوجب القول، أيضا، أنها كانت تصغرهم بأكثر من خمسة عشر سنة.

وصلتُ الآن إلى سؤال كان يرهقني قبل أن أطرحه، لكني كنت مرغما على فعل ذلك:

"هل تعتقد أن لها عشيقا؟"

بـــدتْ لي نغمـــة كلامي عنيفة، شيئا ما، وغبية، بعض الشيء. ولكن الأمر كان على هذا الشكل. قطّب حاجبيه.

"لا".

تردد، نظر بشكل مستقيم في عينيّ، كما لو أنه ينتظر تشجيعا من قِبَلـــي أو أنـــه يبحث عن كلماته. ذات مساء، قدم أحد أصدقائه في المدرسة التجارية، لتناول العشاء في بيته بصحبة شخص يدعى غي دي فـــير، وهـــو رجل أكبر منهما سنا. كان غي منهمكا في العلوم الغيبيّة واقتـــرح أن يُحضر لهما عدّة مؤلفات في هذا الصدد. حضرت زوجته عـــدة اجتماعات، بل وحضرت حتى بعض المحاضرات التي كان يُلقيها غـــي دي فـــير بشكل منتظم. هو لم يستطع أن يرافقها بسبب زيادة الـــشغل في مكتب زانيتاتشي Zannetacci. أبْدت زوجتُه اهتماما بهذه الاجـــتماعات وهذه المحاضرات وكانت تتحدث معه كثيرا عنها، من دون أن يفهم حقيقة بِمَ يتعلق الأمر. ومن بين الكتب التي نصحها غي دي فير بقرءاتها، استعارت منه أحدها، ويبدو هو الأسهل للقراءة. وهو كـــتاب يحمل عنوان، آفاق ضائعة. هل دخلت في اتصال مع غي دي فـــير بعد موت زوجته؟ نعم، لقد هاتفه عدة مرات ولكنه لم يكن على علـــم بأي شيء. "هل أنت متأكد من هذا الأمر؟" حرك كتفيه وثبّتني بنظـــرة متعبة. غي دي فير كان شخصا يتقن جيدا التملص وأدرك بأنه لن يحصل على أي معلومة منه. الاسم الدقيق وعنوان هذا الرجل؟ كان يجهل عنوانه. لم يكن موجودا في دليل الهاتف.

بحثت عن أسئلة أخرى أطرحها عليه. عمّ صمت بيننا، ولكن لم يـــبْدُ أن الأمر أزعجه. كنا جالسيْن جنبا إلى جنب على الكنبة، وجـــدنا نفسينا في قاعة انتظار طبيب أسنان أو طبيب عام. حيطان

بيضاء وعارية. بورتريه امرأة معلق فوق الكنبة. أوشكتُ أن أتناول إحدى المجلات الموضوعة على الطاولة الواطئة. استبد بـــي إحساس بالفراغ. عليّ أن أقول بأنه في هذه اللحظة أحسستُ بغياب جاكلين شورو، حاملة اسم ديلانك، إلى درجة أن الغياب بدا لي نهائيا. لكن يـــتوجب علينا أن لا نكون متشائمين من البداية. ثم ألا تعطي هذه القاعـــة الشعور بالفراغ، حين كانت هذه المرأة موجودة؟ هل كانا يتعشيان هنا؟ إذاً فمن دون شك كانا يتعشيان على طاولة البريدج، التي يتمّ طيها وجمعها بعد ذلك. أردتُ أن أعرف إن كانت غادرت البيت إثر نـــزوة، تاركة خلفها بعض أشيائها. لا. لقد حملت ثيابها وبعض الكتب التي أعارها لها غي دي فير، كل الأشياء في حقيبة من الجلد الأحمر الرمانيّ. لم يتبَقَّ في البيت أدنى أثر لها. حتى الصور التي تظهر فيها - وهي صور نادرة التقطت في العطل - فقد اختفت. في المـــساء، وحـــيدا في الـــشقة، يتساءل إن كان تزوج قط بجاكلين ديلانك. الدليل الوحيد على أن هذا لم يكن حلما هو دفتر الأسرة الذي سُلّم لهما بعد الزواج. دفتر الأسرة. ردد هذه الكلمات كما لو أنه لا يفهم معناها.

لم يكن من المفيد زيارة الغرف الأخرى في الشقة. غرف فارغة. خزائن فارغة. والصمت بالكاد يُعكّره مرور سيارة في جادة بريتفيل. لا بد أن الأمسيات كانت طويلة.

"هل حملت معها المفتاح؟"

أجـــاب بالنفي بحركة من رأسه. لم يكن يملك حتى الأمل في أن يـــسمع في لـــيلة صرير المفتاح في القفل يعلن عودتها. ثم اعتقد أنها لن تكلمه أبدا في الهاتف.

"كيف تعرَّفْتَ عليها؟"

تم تشغيلها في شركة زانيتاشي من أجل تعويض إحدى العاملات. عمل سكرتاريا بالنيابة. أملى عليها بعض رسائل للزبائن وهكذا تعرف أحـــدهما علـــى الآخر. والتقيا بعد ذلك خارج المكتب. قالت له بأنها طالـــبة في مدرســـة اللغـــات الشرقية التي تتابع فيها الدروس، مرتين أسبوعيا، لكنه لم يستطع أبدا معرفة أي اللغات تعنيها. قالت إن الأمر يـــتعلق بلغـــات آسيوية. وبعد شهرين تزوّجا ذات يوم سبت في بلدية نويـــي، وكان الشاهدان من زملاء مكتب زانيتاشي. لم يحضر شخص آخـــر مـــا كان يعتبره هو مجرد شكليات بسيطة. توجّها لتناول طعام الغـــذاء مـــع الشاهدين في مكان قريب من منـــزله، على طول غابة بولوني، في مطعم يرتاده زبائن ترويض الخيل المجاورين.

ألقـــى علـــيّ نظرة مرتبكة. كان يُريد، فيما يبدو، أن يمنحني تفسيرات مسهبة فيما يتعلق بهذا الزواج. ابتسمتُ في وجهه. لم أكن في حاجـــة إلى تفسيرات. بذل مجهودا، وكما لو أنه ألقى بنفسه في الماء:

"نحاول خلق روابط، هل تفهم..."

نعـــم كنتُ أفهم. في هذه الحياة التي تبدو لكم أحيانا مثل أرض واســـعة مـــن دون عمـــود دال، وسط كل خطوط الهروب والآفاق الضائعة، يتمنى المرء أن يعثر على نقاط معالم وإشهار نوع من السجل العقاري كي لا يكون عنده الانطباع بأنه يبحر وفق الصدفة. إذاً يحاول المـــرء نـــسج الـــروابط وجعل لقاءات الصدفة أكثر استقرارا. لزمت الـــصمت، ونظري مثبت على كومة المجلات. في وسط الطاولة الواطئة مـــرمدة كبيرة وعليها كتابة: سينـــزانو. وكتاب مغلّف بعنوان: وداعا فوكـــولارا. جـــون - بيير شورو. سينـــزانو. جاكلين ديلانك. بلدية نويي. فوكولارا. وكان يجب البحث عن معنى لكل هذا...

"ثم إنها كانت تمتلك جاذبية... وقد صُعقت بحبّها..."

ما أن تلفظ، بصوت خافت، بهذا الاعتراف حتى بدا أنه نادم. هل أحسّ، في الأيام التي سبقت اختفاءها، بشيء خاص لديها؟ بالطبع نعم، كانـــت تعاتبه، أكثر فأكثر، بخصوص حياتهما اليومية. كانت تقول له: ليست هذه هي الحياة الحقيقية. وحين كان يسألها ما الذي تعنيه الحياة الحقيقـــية، تحديداً، تهزّ كتفيها من دون جواب، كما لو تعرف أنه لن يفهـــم شيئا من شروحاتها. ثم تستعيد ابتسامتها ولطافتها وتوشك أن تعتذر من مزاجها السيء. ثم تبدو مستكينة وتقول له بأن كل هذا، في حقيقة الأمر، ليس مهما. ربما سيفهم، ذات يوم، ما الذي تعنيه "الحياة الحقيقية".

"أحقاً لا تملك صورة لها؟"

ذات يـــوم، في فترة ما بعد الظهر، كانا يتنـــزهان على ضفة نهر الـــسين. كان ينوي ركوب الميترو في منطقة شاتلي كي يلحق بعمله. مـــرّا في بولفار دو بالي بالقرب من حانوت صغير لاستنساخ الصُوَر. كانـــت تحـــتاج إلى صُوَر من أجل جواز سفرها الجديد. انتظرها على الرصيف. حين خرجتْ عهدت له بالصور وهي تقول بأنها تخاف عليها مـــن الضياع. لدى عودته إلى مكتبه وضع الصُّوَر في ظرف ونسي أن يحملـــه معه إلى نويي. بعد اختفاء زوجته اكتشف أن الظرف لا يزال موجودا، على مكتبه، بين وثائق إدارية عديدة.

"هل تستطيع أن تنتظرني للحظة؟"

تـــركني وحيدا على الكنبة. كان الوقت ليلا. نظرت إلى ساعتي، ودهشت حين رأيت أن العقربين لا يزالان يشيران إلى الساعة السادسة مـــساء إلا ربعا. كان عندي انطباع أنني متواجد في هذا المكان منذ فترة طويلة.

صـــورتان في ظـــرف رمادي، طُبِع على يساره "وكالة عقارية زانيتاشـــي (فرنـــسا)، 20، شارع دي لابّي، باريس الدائرة الأولى." صـــورة أمامـــية وأخرى جانبية، كما كانت تشترط في الماضي إدارة الـــشرطة علـــى الأجانب. اسمها العائلي: ديلانك، واسمها الشخصي: جاكلين، كانا باللغة الفرنسية. صُورتان كنت أمسك بهما ما بين الإبهام والسبّابة وكنت أتأملهما في صمت. شعر أسود وعينان صافيتان وأحد هذين الجانبين من الصفاء بحيث إنه يمنح جاذبية حتى للصور التي تقيس جسم الإنسان.

سألته:

"هل يمكنك أن تعهد لي بها، لبعض الوقت؟"

أجاب:

"بطبيعة الحال."

وضعت الظرف في جيب سُترتي.

ثمـــة أوقـــاتٌ من الأفضل فيها ألا نُنصت لأحد. هو، جون-بيير شـــورو، ما الذي يعرفه عن جاكلين ديلانك؟ ليس ثمة من شيء مهم. عاشـــا معا خلال سنة، بالكاد، في هذا الطابق الأرضي في نوبي. كانا يجلـــسان جـــنب إلى جنب على هذه الكنبة، ويتعشيان، الواحد منهما مقابـــل للآخـــر، وأحـــيانا بحضور أصدقاء المدرسة التجارية القدامى وقدامـــى ثانـــوية جون-بابتيست ساي. هل هذا كافٍ لتخيل كل ما يحـــدث في رأس المـــرء؟ وهل لا تزال تلتقي بأفراد من عائلتها؟ بذلتُ مجهودا أخيرا كي أطرح عليه هذا السؤال.

"لا. لم يكن لها من عائلة."

نهـــضت مـــن مكاني. ألقى عليّ نظرة قلقة. بينما هو ظل جالسا على الكنبة.

قلتُ له:

"حان الوقت للانصراف. لقد تأخرت."

ابتسمت في وجهه، لكنه بدا، حقيقة، وكأنما تفاجأ من رغبتي في مغادرة بيته.

قلت له:

"سوف أهاتفك في أقرب فرصة ممكنة. وأتمنى أن أوافيك بالأخبار في أقرب وقت."

نهض هو بدوره، بهذه الحركة المسرنمة التي قادني بها منذ قليل إلى قاعة الاستقبال. سؤال أخير جاء إلى ذهني:

"هل أخذتْ معها مالا؟

- لا.

- وحين كانت تهاتفك بعد هروبها، هل كانت تمنحك بعض التفاصيل عن نمط حياتها؟

- لا."

توجّه نحو المدخل، بمشيته المتوترة. هل لا يزال باستطاعته الإجابة على أسئلتي؟ فتحت الباب. كان واقفا خلفي، متجمدا. لست أدري أي نوع من الدُّوار أصابني، أية زفرة مرارة، ولكني قلت له بنبرة عدوانية:

"أنت كنت تتمنى، من دون شك، أن تشيخ معها؟"

هل فعلتُ ذلك من أجل إيقاظه من سباته ومن ضناه؟ حملق فيّ وتأمّلني في خشية. كنت في إطار الباب، اقتربتُ منه ووضعت يدي على كتفه:

"لا تتردد في مهاتفتي. في أي ساعة."

انزاح التوتر من وجهه، وجاءته قوة الابتسام. وقبل أن يغلق الباب حيّاني بذراعه. ظللت خلال فترة طويلة في صحن الدرج حتى

انطفــأ جهــاز توقيت إنارة الصحن. كنت أتخيله جالسا وحده على الكنــبة، في المكان الذي كان يجلس فيه منذ قليل. وبحركة آلية، يتناول إحدى المجلات المكدّسة على الطاولة الواطئة.

في الخــارج، كان الوقت ليلا. لم أستطع أن أبعد من رأسي هذا الــرجل الـــساكن في الطابق الأرضي، تحت نور المصباح الساطع. هل ســيأكل شيئا ما قبل أن ينام؟ تساءلتُ إن كان يمتلك مطبخا، في بيته. كـــان عليّ أن أدعوه إلى تناول العشاء معي. ربما، من دون أن أطرح علـــيه أسئلة، كان من الممكن أن يتلفظ بكلمة أو باعتراف، كان يمكن أن يفـــتح لي، بسرعة، طريق جاكلين ديلانك. كان بليمانت يردد لي بأنـــه يـــأتي وقـــت يقـــوم فـــيه كل واحد منا، حتى الأكثر عنادا، بـــــ "الاعتراف" وهو تعبيره المعتاد. علينا نحن، أن ننتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر، محاولين، بطبيعة الحال، إثارتها، لكن بطريقة غير محسوسة تقـــريبا، وكـــان بلـــيمانت يقول: "عن طريق ضربات دبوّس صغيرة ومـــرهفة". يجب أن يكون عند الشخص المعني انطباعٌ أنه يوجد إزاء مُعرِّف (كنسي). الأمر صعبٌ. إنها المهنة. كنت قد وصلت إلى بورت مايـــوت وكنت أريد أن أواصل المشي لبعض الوقت في دفء المساء. لكن فردتي حذائي الجديدتين لسوء الحظ كانتا تسببان لي ألما شديدا في رســـغ قدمـــيّ. فاضطررت وأنا في الجادة أن ألِج أول مقهى واخترتُ إحـــدى الطـــاولات القريبة من النافذة الكبيرة. ففككت خيوط فردتي حذائـــي، وخلعت فردة حذائي اليسرى، الأكثر إيلاما. وحين اقترب النادل لم أتردد في اللحظة الخاطفة من النسيان ومن النعومة التي يمنحها لي كأس إزارّا الأخضر اللون.

أخـــرجتُ الظرف من جيبـــي وتأملتُ الصورتين مليا. أين هي الآن؟ هل هي في مقهى، مثلي، جالسة لوحدها إلى طاولة؟ الجملة التي تفـــوّه بهـــا، منذ قليل، أعطتني هذه الفكرة: "نحاول خلق روابط..." لقـــاءات في الـــشارع، في محطة ميترو في ساعات الازدحام الشديد. يـــتوجب أن يرتبط الواحد بالآخر بأصفاد في هذه الأوقات. أي رباط يمكـــنه أن يقاوم هذا السيل الذي يجرف المرء ويحرفه عن مجراه؟ مكتب مجهـــول يتم إملاء رسالة على عاملة مؤقتة تطبع على آلة كاتبة، طابق أرضـــي في نويـــي تحيل جدرانه البيضاء والفارغة إلى ما نسميه "شقّة شـــاهدة" وحيث لا يبقى أيّ أثر عند المرور... صورتان شخصيتان، واحـــدة أمامـــية وأخرى جانبية... أمع هذا يتوجب خلق روابط؟ ثمة شـــخص يستطيع مساعدتي في عملية البحث: بيرنول. لم أعاود رؤيته مـــن الفترة التي كنت ألتقي فيها بليمانت، عدا ما بعد ظهيرة يوم قبل ثلاث سنوات. سوف أركب الميترو ثم أعبر ساحة نوتردام. خرج رجل متـــسكع من أوتيل - ديو وتقاطعْنا. كان لابسا قميصا مطريا بكمّين ممـــزقين وســـروالا يـــتوقف فوق كعبيه، فيما كانت رجلاه العاريتان تنـــتعلان صندلا عتيقا. كان حليقا بشكل سيء، وشعر رأسه الأسود طـــويلا جـــدا. ورغـــم كل هذا فقد تعرّفتُ عليه. بيرنول. تبعتُه بنية الـــتحدث إلـــيه، لكـــنه كان يحث الخطى. اجتاز الباب الكبير لإدارة الشرطة. ترددت لحظة. لم يكن ثمة من أمل في الإمساك به. فقررت أن أنتظره، هنا، على الرصيف. وعلى كل، فقد كنّا يافعَيْن، معا، من قبل.

خـــرج من نفس الباب، وهو مرتد معطفا أزرق غامقا وسروالا صـــوفيا وحـــذائين سوداوين بزمام. لم يكن نفسَ الرجل. بدا وكأنه منـــــزعج حين بادرته بالكلام. بدا حليقا للتوّ. تمشينا على طول ضفة نهر السين من دون أن يتفوه أحدنا بكلمة. وما أن جلسنا إلى طاولة في

مقهى سولاي دور حتى بدأ في الحديث. لا يزال يشتغل في أعمال جمع معلومات، ليس من شيء كبير، عملُ مُخْبِر وعميل شرطة وهو يتصنع دور متـــشرد كي يرى بطريقة أفضل وينصت لما يجري من حوله: مخابئ أمام البنايات وفي أسواق الأشياء القديمة والمستعملة، في منطقة بـــيغال، ومن حول محطات القطارات وحتى في الحي اللاتيني. أظهر ابتسامة حزينة. كان يقطن في استوديو في الدائرة السادسة عشر من بـــاريس. أعطاني رقم هاتفه. لم نتحدث عن الماضي، ولو للحظة. وضع كيس السفر على المصطبة التي بجانبه. كان سيتفاجأ كثيرا لو ســـألتُه عن محتويات الكيس: قميص مطري مترهل وسروال قصير، وصندل.

في نفـــس المساء الذي عدتُ فيه من هذا الموعد إلى نويي، قمت بمهاتفته. منذ التقائنا الجديد، كنت أعود إليه أحيانا من أجل المعلومات التي أكون في حاجة إليها. طلبتُ منه أن يبحث لي عن بعض التفاصيل فـــيما يخص المدعوّة جاكلين ديلانك، الزوجة شورو. لم تكن بحوزتي أشـــياء كثيرة يمكن لي أن أقولها له عن هذه المرأة، عدا تاريخ ميلادها وتاريخ زواجها مع رجل يدعى شورو جون-بيير، 11، شارع بريتفيل في نويي، وهو شريك- وكيل لدى زانيتاشي. سجل ما قلته. وتساءل في خيـــبة: "هذا كل شيء؟". ثم أضاف بصوت مستخفّ: "أفترض أنه لا يوجد شيء في مِفْرش هؤلاء الناس". مفرش. حاولت تخيل غرفة نـــوم شورو وزوجته، هذه الغرفة التي كان يتوجب أن ألقي عليها نظـــرة، من باب الوعي المهني. غرفة فارغة إلى الأبد، سرير لم يتبق منه سوى المفرش.

في الأســابيع التالية هاتفني شرور مرات عديدة. وكان يتحدث دائمــا بصوتٍ خال من أي نبرة، وكان ذلك يحدث دائما في الساعة الــسابعة مساءً. ربما، في هذه الساعة، وهو وحيد في الطابق الأرضي، كان يحتاج للحديث إلى أحد. كنت أطلب منه أن يصبر. كان عندي انطــباع بأنــه لم يعد يصدّق الأمر وبأنه سيقبل، شيئا فشيئا، اختفاء زوجته. تلقيت رسالة من بيرنول:

عزيزي كيزلي،

لا شيء في المفرش. لا فيما يخص شورو ولا ديلانك.

ولكن الصدفة أفضل من ألف ميعاد. أتاح عمل رتيب في الحسابات أوكِل إليّ به في دفتر المَحاضر والمسودات في مركزي الشرطة في الدائرتين، التاسعة والثامنة عشر، أن أعثر على بعض المعلومات التي تخصك.

عثــرتُ مــرتين على "ديلانك، جاكلين، 15 سنة". مرة في دفتر مــسودة في مركز الشرطة بحيّ سانت-جورج، قبل سبع سنوات، ومرة ثانية، بعدها ببضعة أشهر، في مسند درج في مركز شرطة لغراند-كاريير. السبب هو تشرّد الأحداث.

ســألتُ لــيوني إن كان ثمة أشياء فيما يخص الفنادق. منذ سنتين، نــزلت ديلانك جاكلين في فندق سان ريمو، 8، شارع أرمايي في الدائرة الــسابعة عشر، وفي فندق ميتروبول، 13، شارع إتوال، الدائرة السابعة عشر. كُتب في مسندي درج سانت-جورج وغراند-كاريير، أنها كانت تقطن عند أمها، 10، جادة راشيل في الدائرة الثامنة عشر.

هي تقطن حاليا في فندق سافْوَا، 8، شارع شارع سيلس، في الدائرة الــرابعة عشر. والدتها ماتت قبل أربع سنوات. نسخة من تاريخ ميلادها

أخرجت من بلدية فونتين - أون - سولوني (منطقة لوار - إي - شير)، وسأرسل لك نسخة مصورة منها، تشير إلى أنها ولدت من أب مجهول. كانت أمها تشتغل معيّنة للمقاعد في مسرح مولان-روج، وكان لها صديق، ويدعى غي لافيني، يشتغل في كاراج لافونتين، 98، شارع لافونتين في الدائرة السادسة عشر ويساعدها ماديا. ولا يبدو أن جاكلين ديلانك تمارس مهنة ما بشكل منتظم.

هذا هو، يا عزيزي كيزلي، كل ما استطعت تجميعه من أجلك. أتمنى أن أراك في المرة القادمة، لكن بشرط ألا أكون في بدلة العمل. كان بلسيمانت سيضحك كثيرا من تنكري في زي متشرد. أما أنت فأفترض أنك ستضحك بدرجة أقل. وأنا، لن أضحك على الإطلاق.

لك مني كل التشجيع

بيرنول

لم يتبقّ لي سوى أن أهاتف السيد جون - بيير شورو لأقول له بأن اللغز قد انقشع. أحاول أن أتذكر في أية لحظة، بالتحديد، قررتُ ألاّ أفعل ما كنت بصدده. كنت قد ركبت الأرقام الأولى من هاتفه حين أغلقت السماعة، بصفة مفاجئة. كنت مرهقا من فكرة العودة إلى هذا الطابق الأرضي في نويي في فترة نهاية النهار، مثل المرة الأخيرة، ثم انتظار انسدال الليل بصحبته، تحت المصباح ذي الأباجورة الحمراء. بسطتُ خريطة تاريد Taride القديمة لباريس التي أحتفظ بها دائما في مكتبي، وفي متناول يدي. ومن فرط استخدامها مزقتها كثيرا من أطرافها، وكنت، كلّ مرة، أضع لصاقا بلاستيكيا على المكان الممزق، مثلما نضمّد جريحا. مقهى كوندي. نويي. حي إتوال.

جادة راشيل. ولأول مرة في حياتي المهنية شعرتُ بالحاجة، وأنا أجري التحقـــيق، إلى أن أســـير عكس التيار. نعم، كنت أقطع، في الاتجاه المعـــاكس، الطـــريق التي تتبعتها جاكلين ديلانك. و لم تعُدْ من فائدة ترجـــى مـــن جون - بيير شورو. لم يكن سوى ممثل بدور ثانوي، وكنت أراه يبتعد بصفة نهائية، ومنديل أسود في يده، في اتجاه مكتب زانيتاشـــي. الـــشخص المهم الوحيد، في حقيقة الأمر، هو جاكلين ديلانـــك. مـــرّ العديـــد من شبيهات جاكلين في حياتي... ستكون الأخيرة. ركبت الميترو، خط شمال - جنوب، مثلما يقال، الطريق التي تـــربط ما بين جادة راشيل وكوندي. وبقدر ما كانت تعبر المحطات، كـــنت أســـتعيد الزمن. نـــزلت في محطة بيغال. وهنا تمشيت على المصطبة الترابية للبولفار بخطى رشيقة. ما بعد ظهيرة خريفية مشمسة حيث يعشق المرء إنجاز مشاريع مستقبلية وحيث الحياة يمكن أن تبدأ مـــن الصفر. وعلى كل حال، ففي هذه المنطقة بدأت حياة جاكلين ديلانك... بدا لي أنني على موعد معها. على مستوى ساحة بلانش، ازدادت دقات قلبـــي، قليلا، وأحسست بالتأثر بل وحتى بالخوف. لم أعـــرف هذا الشعور منذ فترة طويلة. واصلتُ تقدّمي على المصطبة الترابية بخطى متسارعة أكثر فأكثر. كان باستطاعتي أن أتمشى مغمض العيـــنين في هـــذا الحـــي الأليف: مولان-روج، سانغليي بلو... من يـــدري؟ ربما التقيت بجاكلين ديلانك منذ فترة بعيدة، على الرصيف الأيمـــن حـــين تـــأتي للالتقاء بأمها في مسرح مولان-روج، أو على الرصيف الأيسر عند الخروج من ثانوية جيل-فيري. هكذا، كنت قد وصـــلتُ. وكنتُ قد نسيت اسم السينما الموجودة في ركن الجادة. تـــسمى مكـــسيكو، وليس من الصدفة إن كانت تحمل هذا الاسم. فالاســـم يعطي رغبات في السفر وفي الهروب أو الفرار... كنت قد

نسيت أيضا صمت وهدوء جادة راشيل التي تقود إلى المقبرة، ولكن لا أحد يفكر في المقبرة، يقول الناس فيما بينهم بأننا في منتهى الجادة سنطل على الريف، بل وبشيء من الحظ سيفضي بنا المسار إلى نزهة على شاطئ البحر.

توقفت أمام باب رقم 10، وبعد تردد، دخلت العمارة. أردت أن أدق على الباب الزجاجي للحارس، ولكني تماسكتُ. ما الفائدة من الأمر؟ على يافطة صغيرة ملصقة على إحدى مربّعات الباب تظهر بحروف سوداء أسماء المستأجرين وطابق كل واحد منهم. أخرجتُ من جيب سترتي الداخلي دفتري وقلمي وسجلت الأسماء:

ديرلورد (كريستيان)
ديكس (جيزيل)
دوبوي (مارث)
إزنولت (إيفيت)
غرافيي (أليس)
مانوري (ألبين)
ماريسكا
فان روسترهودت (هوغيت)
زازاني (أوديت)

اسم ديلانك (جونفييف) كان مشطوبا عليه وتم تعويضه باسم فان روسترهودت (هوغيت). وقد سبق للأم وابنتها أن سكنتا في الطابق الخامس. ولكني وأنا أغلق الدفتر كنت أعرف أن هذه التفاصيل لن تفيدني في شيء.

في الخـــارج، وفي الـــدور الأرضي من العمارة، رجل واقف على عتـــبة متجر قماش يحمل عنوان لا ليكورن. وبما أني كنت أرفع رأسي صوب الطابق الخامس، سمعته يقول لي بصوت حادّ وخافت:

"هل تبحث عن شيء ما، سيدي؟"

كـــان عليّ أن أطرح عليه سؤالا بخصوص جونفييف وجاكلين، ولكني كنت أعرف ما كان سيجيبني به، لا شيء سوى أشياء سطحية، تفاصيل صغيرة في "السطح"، كما يقول بليمانت، من دون الدخول في عمـــق الأشياء. يكفي سماع صوته الحاد والخافت ورؤية رأس الفضوليّ الـــتي يمـــتلكها وقسوة نظرته: لا، لم يكن ثمة من أمل يُرجى منه، عدا "المعلـــومات" التي يمكن لأي واشٍ بسيط أن يقدمها. أو أنه سيقول لي بأنـــه لا يعـــرف جونفييف ولا جاكلين ديلانك. استبد بـــي غضب جـــارف تجـــاه هذا الرجل الذي يشبه وجهه وجه ابن عِرس. هو ربما يمـــثل، بالنسبة لي، وبشكل مفاجئ، كل هؤلاء الشهود المدّعين الذين قمـــت باســـتنطاقهم أثناء تحقيقاتي والذين لم يفهموا قطّ الأشياء التي رأوهـــا، إمـــا عن غباء أو خبث، أو عن لا مبالاة. تمشيت بخطى ثقيلة وتسمّرتُ أمامه. تجاوزته بما يقرب من عشرين سنتمترا، وقست ضِعْف وزنه.

"أليس للمرء الحق في النظر إلى الواجهات؟"

نظر إليّ بعينيه القاسيتين والخائفتين. كنت أتمنى لو أنني أخفتُهُ أكثر.

وكـــي أهدئ من خوفي، جلستُ على مقعد في المصطبة الترابية، على مستوى بداية الجادة، مقابل سينما مكسيكو. خلعت فردة حذائي اليسرى.

الطقـــسُ مـــشمس. كنت ضائعا في أفكاري. تستطيع جاكلين ديلانك أن تعتمد على حفظي للساني. شورو لن يعرف شيئا عن فندق

سافْوا، وعن كوندي ومرآب لافونتين ولا عن المدعو رولاند، وهو من دون شـــك الأسمـــر ذو المعطف المصنوع من جلد الأيّل المشار إليه في الدفتـــر. "لوكي. الإثنين 12 فبراير الحادية عشر ليلا. لوكي 28 أبريل الـــساعة الثانية بعد الزوال. لوكي مع الأسمر ذي المعطف المصنوع من جلـــد الأيّل." ومن خلال صفحات هذا الدفتر سطّرتُ اسمها كل مرة ورد فـــيه بالقلم الأزرق، ونسختُ على أوراق منفصلة كلَّ الأدلة التي تخصها. مع التواريخ. والساعات. لم يكن ثمة أيّ سبب للقلق. لن أعود قـــط إلى كوندي. لقد كنتُ، في الحقيقة، محظوظا في المرتين أو الثلاث مـــرات التي انتظرتها على إحدى طاولات هذا المقهى، أنها لم تأت في هـــذا اليوم. كنتُ سأكون منـــزعجا لرصدها من دون علمها، نعم، كـــنتُ سأشـــعُر بالعار من دوري. بأيّ حقّ ندخل، بواسطة الاقتحام حـــياة الناس وأيّ تعجرف في سبر خاصراتهم وقلوبهم - والطلب منهم أن يدفعوا الحساب... بأي حقّ؟ كنت قد نـــزعت جوربـــي وبدأت أدلـــك رسغ قدمي. بدأ الألم يخف. جنّ الليل. أفترض أنها الساعة التي كانـــت جونفيـــيف ديلانـــك، في الماضي، تذهب فيها إلى عملها في مـــولان - روج. ابنتها تبقى وحيدة، في الطابق الخامس. ذات مساء، حـــين كـــان عمـــرها ثلاثة عشر أو أربعة عشر، بعد خروج والدها، خـــرجت من العمارة وهي تحرص على أن لا تلفت انتباه الحارس. في الخـــارج، لم تكن قد تجاوزت زاوية الجادة. اكتفت في الفترات الأولى بعرض الساعة العاشرة في سينما مكسيكو. ثم العودة إلى الشقة، صعود الأدراج، مـــن دون أن تـــستخدم جهاز توقيت إنارة دَرَج العمارة، ثم الـــباب الـــذي يتم إغلاقه بأكبر قدر ممكن من الهدوء. ذات ليلة، عند الخـــروج من السينما، تمشت قليلا، إلى أن وصلت إلى ساحة بلانش. وكـــل ليلة، تتقدم أكثر. تشرّد الأحداث، كما كُتِب في دفتر المَحاضر

في مركزي الشرطة في حي سانت-جورج وغراند-كاريير، والكلمتان الأخيرتـــان تستحـــضران بالنسبة لي مَرْجا تحت القمر، ما بعد جسر غولانكـــورت، هناك، خلف المقبرة، مرجٌ يمكن للمرء أن يستنشق فيه الهواء النقي. وقد جاءت أمها للبحث عنها في مركز الشرطة. من ذلك الحـــين انطلقت و لم يعُدْ بإمكان أي شخص أن يوقفها. تسكع ليلي في اتجـــاه الغرب، إذا ما حكمتُ على بعض الأدلة التي جمّعها بيرنول. في الـــبداية، حـــيّ إتوال، ثم التوغل أكثر إلى الغرب، نويي وغابة بولوني. لكـــن لماذا تزوجت من شورو؟ ثم هروب جديد، ولكن هذه المرة في اتجـــاه الـــضفة اليسرى من نهر السين، كما لو أن عبور النهر يمكن أن يحميها من خطر داهم. ومع ذلك، أَلَم يكن هذا الزواج أيضا حماية لها؟ لـــو كان لديها الصبر على البقاء في نويي، كنّا سننسى، على مرّ الأيام أنه تحت اسم السيدة جون-بيير شورو تتخفى جاكلين ديلانك التي يرد اسمها مرتين في دفتر المحاضر.

لقد كنت، بالفعل، لا أزال سجين ردود فعلي المهنية القديمة، التي كانـــت تجعل زملائي يقولون بأنني أواصل تحقيقاتي، حتى أثناء نومي. بلـــيمانت كان يقارب بيني وبين ذلك اللص، قاطع الطريق، في ما بعد الحـــرب، الـــذي كان يسمّى: "الرجل الذي يدخن وهو نائم". كان يحتفظ باستمرارعلى طرف طاولة نومه بطفّاية وعليها وضعت سيجارة مـــشتعلة. وكان ينام بشكل غير منتظم، وفي كل استيقاظة قصيرة، يمد يـــده نحو الطفاية ويسحب سحبات من دخان السيجارة. وحين تنتهي هذه السيجارة يشعل أخرى بحركة مسرنمة. لكنه في الصباح لا يتذكر شـــيئا، وهو على قناعة بأنه نام نوما عميقا. أنا أيضا، على هذا المقعد، وقـــد جنّ الليل، الآن، لديّ الانطباع بأني في حلم حيث أواصل تتبع خطى جاكلين ديلانك.

أو بالأحـــرى أُحسّ بحضورها في هذا البولفار الذي تشع أنواره مـــثل علامات، من دون أن أستطيع تفكيكها ومن دون أن أعرف من عمـــق أيّ سنوات أُرسِلت إليّ. ولا تزال تبدو لي، هذه الأضواء، أكثرَ لمعانا بسبب شبه عتمة المصطبة الترابية.، وزاهية وقصيّة في الوقت ذاته.

لبـــست جوربـــــي وأدخلـــت رِجلي في فردة حذائي اليسرى وتـــركت هذا المقعد حيث كان بالإمكان أن أقضي فيه، طواعية، كل اللـــيلة. وتمشيت على طول المصطبة الترابية مثلها هي، حين كانت في ســـن الخامـــسة عشر، قبل أن يُلقى عليها القبض. أين وفي أي وقت أثارت الانتباه إلى شخصها؟

ســـينتهي الأمـــر بشورو إلى أن يتعب. سأردّ بعض المرات على اتـــصالاته الهاتفية وأمنحه بعض الإشارات الفضفاضة - كلها كاذبة، بطبيعة الحال. باريس مدينة كبيرة ومن السهل تضليل شخص ما فيها. عـــندما يتكون لدي الانطباع بأنني جررته إلى مسالك مغلوطة، لن أردَّ قـــط علـــى اتصالاته. تستطيع جاكلين الاعتماد عليّ. سوف أترك لها الوقت كي تكون، بصفة نهائية، بعيدةً عن المتناول.

هي الأخرى، في هذه اللحظة، تتمشى في مكان ما من المدينة. أو ربمـــا هي جالسة إلى طاولة، في الكوندي. ولكن ليس لديها ما تخاف منه. لن أكون أبدا في الموعد.

من رآني حين كنتُ في سن الخامسة عشر، تصورني في سن التاسعة عشر. بل وحتى العشرين. لم أكن أدعى لوكي وإنما جاكلين. كنت لا أزال صغيرة جدا حين استفدت، لأول مرة، من غياب أمي كي أخرج من البيت. كانت تذهب إلى العمل في الساعة التاسعة ليلا، ولا تعود إلى المنزل إلا في الساعة الثانية صباحا. في هذه المرة الأولى كنت قد أعددتُ كذبة في حال ما إذا لحني الحارس في الدرج. كنت سأقول لها بأني اشتريت دواءا من صيدلية ساحة بلانش.

لم أعُد إلى الحيّ إلا في ذلك المساء الذي رافقني فيه رولاند في التاكسي إلى بيت صديق غي دي فير. كان لدينا موعدٌ مع كل الذين يحضرون عادةً الاجتماعات. كنا قد تعارَفْنا للتوّ، رولاند وأنا، ولم أجرؤ أن أقول له شيئا حين أوقف التاكسي في ساحة بلانش. كان يريد أن نتمشى. لم يكن قد لاحظ، ربما، كيف ضغطتُ على ذراعه. كنت مصابة بدوار. كان عندي انطباع بأنه إذا ما اجتزت الساحة فإنه سيغمى عليَّ. كنت خائفة. هو الذي كان يتحدث لي في كثير من المرات عن **العود الأبدي** كان بإمكانه أن يفهم. نعم، كل شيء يبدأ من جديد، بالنسبة لي، كما أن الموعد مع هؤلاء الناس لم يكن سوى سياق وأنه تم تكليف رولاند بأن يحضرني برفق إلى الحظيرة.

أحسست بالارتياح لأننا لم نمرَّ بالقرب من مسرح مولان – روج. على الرغم أن أمي كانت قد ماتت قبل أربع سنوات، ولم يكن

ثمّــة شيءٌ أخشاه. كل مرة كنت أنسّل فيها من الشقة ليلا، في غيابها، كــنت أتمــشى على الرصيف الآخر من البولفار، أي الواقع في الدائرة التاسعة. لم يكن يوجد أي ضوء في هذا الرصيف. بناية ثانوية جيل - فــيري المظلمة، ثم واجهات البنايات والتي كان ضوء نوافذها منطفئا، مَطْعــم، من رآه كان سيقول بأن القاعة دائما في العتمة. وكنت، كل مــرة، لا أســتطيع منع نفسي من إلقاء نظرة على الجانب الآخر من المــصطبة التــرابية، علــى مولان - روج. حين كنت قد وصلتُ إلى مــستوى مقهى بالميي وبالتالي سأنفذ إلى ساحة بلانش، لم أكن أحس بطمأنينة كبيرة. الأضواء، من جديد. ذات ليلة مررتُ فيها بالقرب من الــصيدلية لمحــتُ أمي مع زبائن آخرين، من خلف الزجاج. قلتُ في نفــسي بأنهــا قــد أنهتْ عملها باكرا، وأنها ستعود إلى البيت. إذا ما عــدوتُ ســوف أصل قبلها. تسمَّرتُ في ركن شارع بروكسيل كي أعــرف الطــريق الــذي تسلكه. ولكنها عبرت الساحة وعادت إلى مولان - روج.

كثيراً ما كنت أشعر بالخوف، وكي أطمئن نفسي كنت أستطيع أن أذهــب عند أمي، ولكني كنت سأزعجها في عملها. أنا متأكدة، اليوم، بأنها ما كانت لتعنّفني، لأنها في الليلة التي جاءت فيها للبحث عني في مركــز الشرطة بــ غراند-كارير، لم أتلق منها أيّ عتاب ولا أي تهديــد ولا أي درس في الأخلاق. كنا نتمشى في صمت. وفي وسط جسر غولانكور سمعتها تقول بلهجة غير مكترثة: "صغيرتي المسكينة"، ولكــني كــنت أتساءل إن كانت تتوجه بالحديث إليّ أم إلى نفسها. انتظــرتْ حــتى أتخلص من ثيابــي وأدخل في سريري كي تدخل إلى غرفتي. جلست في طرف السرير وظلت صامتة. أنا أيضا بقيت صامتة. ثم انتهــى بها الأمر إلى أن تبتسم. قالت لي: "لسنا ثرثارتين كثيرا.."

ونظــــرت إلى عيني. كانت أول مرة تترك لنظرها العنان في النظر إليّ، كما كانت المرة الأولى التي أكتشف فيها أن عينيها صافيتان ورماديتان أو أنهمـــا زرقـــاوان باهتـــتان. رماديتان-زرقاوان. مالت عليّ وقبّلت وجـــنتي، أو أنني بالأحرى أحسست بشفتيها بطريقة خاطفة. وظلت هـــذه النظرة مثبتة عليّ، هذه النظرة الواضحة والغائبة. أطفأت الضوء وقبل أن تغلق الباب قالت: "احرصي على أن لا تعاودي الأمر". أعتقد أنها المرة الوحيدة التي حدث فيها اتصال بيننا، خاطف جدا، غير موفّق، ومـــع ذلك فقد كان قويا جدّا لدرجة أنني نادمة على أنه لم يحدث، في الأشـــهر التالـــية، اندفاع نحوها كان يمكن له أن يخلق مرة أخرى هذا الاتصال. ولكننا معا، أمي وأنا، لم نكن نكشف بسهولة عن مشاعرنا. ربمـــا كانت تظهر اتجاهي هذا الموقف الذي يبدو لا مباليا لأنه لم تكن لـــديها أوهام فيما يخصني. كانت تقول في نفسها، من دون شك، بأنه ليس ثمة شيءٌ كبير يرجى لأنني أشبهها.

ولكـــنني لم أفكر أبدا في هذه الأشياء، في حينها. كنت أعيش في الحاضـــر مـــن دون أطرح على نفسي أسئلة. كل شيء تغيّر في ذلك المـــساء حـــين أعادني رولاند إلى هذا الحي الذي كنت أتجنبه. لم أكن وضـــعت علـــيه قدمـــي مـــنذ وفاة والدتي. تقدم التاكسي في شارع شوســـي - دانـــتان، ورأيت في أقصى الشارع الكتلة السوداء لكنيسة تـــرينيتي، مثل عُقاب ضخم يقوم بالحراسة. لم أكن على ما يرام. كنا نقتـــرب من الحدود. قلت في نفسي إنه يوجد ثمة أملٌ. ربما سنتجه نحو الـــيمين. لكـــن الأمـــر لم يكن كذلك. كنا نسرع بشكل مستقيم، فـــتجاوزنا سكوار ترينيتي، وصعدنا المنحدر. عند الضوء الأحمر، وقبل أن نصل إلى ساحة كليشي، أوشكت أن أفتح الباب وأهرب. لكني لم أشأ أن أتسبب له في هذا.

لاحقــا، وبعـــد أن واصـــلنا مشيا السير في شارع أبيس نحو العمارة، حيث مكان الموعد، استعدت هدوئي. ومن حسن الحظ أن رولاند لم يلاحظ شيئا. حينها ندمتُ على أننا لا نتمشى كثيرا، نحن الإثـــنين، في الحـــي. كنت أريد أن أتجول به وأن أُريه المكان الذي سكنتُ فيه بالكاد قبل ست سنوات والذي أصبح موغلا في البعاد، في حياة أخرى... بعد وفاة والدتي، ظل رباط واحد يشدني إلى تلك الحقـــبة، شـــخص يدعى غي لافيني، صديق والدتي. علمت أنه هو الـــذي كان يدفع إيجار المنـــزل. لا أزال ألتقي به، من حين لآخر. يـــشتغل في كاراج في منطقة أوتوي. ولكننا لا نتحدث عن الماضي تقـــريبا. وهو مثل والدتي قليل الكلام. حين تم إحضاري إلى مركز الشرطة، طرحوا عليّ أسئلة كنت مرغمة على الإجابة عنها، ولكني في البداية، كنت أجيب بتردد، مما جعلهم يقولون لي: "أنت، لست ثـــرثارة"، كما كانوا سيقولون لأمي ولصديقها غي لافيني لو أنهما ســـقطا بـــين أيديهم. لم أكن متعودة على تلقي الأسئلة. بل كنت مندهـــشة لكـــونهم اهـــتموا بحالتي. المرة الثانية في مركز الشرطة بغـــراند - كـــارير، وهـــناك تلقاني شرطي أكثر لطافة من الأول فارتحـــتُ لطـــريقته في طـــرح الأسئلة. هكذا كان متاحا التصريح بالأشياء والتحدث عن الذات، وكان الشخص المقابل مهتما بأفعالي وحـــركاتي. لم أكن متعودة على مثل هذه الحالة و لم أكن أعثر على الكلمات للإجابة، عدا الأسئلة المحددة. مثلا: كيف كانت دراستك؟ راهبات سانت - فانسونت دو بول في شارع غولانكور والمدرسة الابتدائـــية في شارع أنطوانيت. لم أستطع، من الخجل أن أقول له بـــأنني رُفضتُ في ثانوية جيل - فيري، ولكني تنفست نفسا عميقا وصارحته بهذه الحقيقة. مال نحوي وقال لي بصوت هادئ، كما لو

يــريد أن يقــدم لي العزاء: "ليس مهما ثانوية جيل-فيري..." ولقد فاجأني الأمر كثيرا إلى درجة أنه في البداية جاءتني رغبة في الضحك. ابتــسم لي ونظــر إلى عيني، نظرة واضحة كنظرة أمي، ولكن فيها حنان أكثر وانتباه أكبر. ثم سألني أيضا عن أوضاعي العائلية. شعرت بالــثقة ونجحت في مده ببعض المعلومات الهزيلة: تنحدر والدتي من قــرية ســولوني، هناك حيث كان السيد فوكريت، مدير مولان - روج، يمتلك مزرعة. ولهذا السبب حصلتْ حين وصلت إلى باريس، وهي لا تزال شابة، على شغل في هذه المؤسسة. لم أكن أعرف من هو أبوها. ولدتُ في سولوني ولكني لم أعد إليها أبدا. ولهذا السبب كانــت أمي تردد لي دائما: "لم نعد نمتلك هيكلا...". كان ينصت إليّ ويسجل بعض الملاحظات. أما أنا فكان ينتابني شعورٌ جديد، إذ بقدر ما كنتُ أمنحه هذه التفاصيل الهزيلة كنتُ أتخلص من ثقل ما. لم يعُد هذا الأمر يهمني قط، كنت أتحدث عن شخص آخر، وكنت مرتاحة من رؤيته وهو يسجل ملاحظات. لو أن كل شيء كان قد انتهى، بكل وضوح، فمعناه أن كل شيء قد انتهى، مثلما هو حال القبور التي حفرت عليها أسماء وتواريخ. وكنت أتكلم بسرعة، أكثر فأكثر، وكانت الكلمات تتدافع: مولان - روج، غي لافيني، ثانوية جيل - فيري، لاسولوني... لم أستطع من قبل أن أتحدث إلى أحد. يا له من خلاص بينما كل الكلمات تخرج من فمي... كان جزء من حياتي ينتهي، حياة كانت مفروضة عليّ. من الآن فصاعدا سأكون أنا من أقرر مصيري. كل شيء سيبدأ من اليوم، وكي أستعدّ جيدا للوثوب كنت أحبّ لو أنه شطب على ما كتبه للتوّ. كنت مستعدة لأمــنحه تفاصــيل وأسماء أخرى وأن أتحدث إليه عن عائلة خيالية، عائلة مثل تلك التي كنت سأحلم بها.

نحـــو الساعة الثانية صباحا، جاءت أمي لتصطحبني. قال لها بأن ليس في الأمر خطورة. كان لا يزال يثبتني بنظره المتنبه. تسكع أحداث، هذا ما كُتب في السجل. في الخارج، كانت سيارة تاكسي تنتظر. حين ألقـــى علَـــيّ أسئلة بخصوص الدراسة نسيتُ أن أقول له بأني ارتدت، خــلال بــضعة شهور، مدرسة بعيدة قليلا وتوجد على نفس رصيف مركز الشرطة. كنت أبقى في كانتين المدرسة وتأتي أمي لاصطحابـــي في المساء. كانت، أحيانا، تصل متأخرة، فكنت أنتظرها، جالسة على مقعـــد في المـــصطبة التـــرابية. وهنا، لاحظتُ أن الشارع يحمل اسمين مختلفين من كلا الجانبين. هذه الليلة، جاءت أيضا لتصطحبني، بالقرب مـــن المدرســـة، ولكن في داخل مركز الشرطة، هذه المرة. غريبٌ هذا الشارع الذي يحمل اسمين مختلفين والذي يبدو أنه يريد أن يلعب دورا في حياتي...

كانـــت أمـــي، مـــن حين لآخر، تلقي نظرة قلقة على عداد التاكـــسي. وطلـــبت مـــن السائق أن يتوقف في مكان من شارع غولانكـــور، وحين أخرجت القطع المالية من كيس نقودها، عرفت أنها لا تملك أكثر مما استطاعت أن تدفعه. وأكملنا باقي الطريق مشيا على الأقدام. كنت أتمشى أسرع منها، وكنت أتركها خلفي. لكني كنت أتوقف كي تلحق بـــي. وعلى الجسر الذي يطل على المقبرة ومـــن حيث يمكننا إلى الأسفل رؤية العمارة التي نقطن فيها، توقفنا خـــلال فتـــرة طويلة، وكان عندي الانطباع بأنها تستعيد نَفَسَها، وقالـــت لي: "أنـــت تسرعين المشي". اليوم، حضرتني فكرة. كنت أحـــاول، ربّما، أن أجُرَّها بعيدا عن هذه الحياة الضيقة التي كانت عليها حياتها. لو أنها كانت لا تزال على قيد الحياة، أعتقد أني كنت سأنجح في تعريفها على آفاق أخرى.

في الـــسنوات الثلاث أو الأربع التي أعقبت وفاها، كان الأمرُ يتعلق، في معظـــم الأحيان، بنفس المسارات ونفس الشوارع، على الرغم من أني كـــنتُ أبـــتعد أكثر فأكثر. في الفترة الأولى لم أكن أصل حتى إلى ساحة بلانش. كنت بالكاد أحوم حول مجموعة بيوت... في البداية هذه السينما الـــصغيرة، في زاوية البولفار على بعد أمتار من البناية، حيث يبدأ الفيلم في الساعة العاشرة ليلا. القاعة كانت فارغة، عدا أيام السبت. كانت أحداث الأفـــلام تجري في بلدان قصية، مثل المكسيك وأريزونا. لم أكن أعير أي اهـــتمام إلى الحـــبكة، وحدها المَشاهد كانت تنال اهتمامي. وعند انتهاء الفيلم كان ثمة خليط غريب في رأسي بين الأريزونا وبولفار كليشي. ألوان عـــناوين المحـــلات المضاءة والنيون كانت تشبه نظيراها في الفيلم: برتقالية وزمـــردية (خـــضراء ناضرة) وأزرق ليلي وأصفر رملي، ألوان عنيفة جدا تمنحني الإحساس بأني أتواجد دائما في الفيلم أو في حلم. حلم أو كابوس، حـــسب الظروف. في البدء، كان الأمر يتعلق بكوابيس لأني كنتُ أخاف ولم أكـــن أجـــرؤ علـــى المضي بعيدا. لم يكن الأمر بسبب أمي. لو أنها فاجأتني في البولفار، في منتصف الليل، وحيدة، كان سيصدر منها، بالكاد، كلمة لوم. كانت ستطلب مني أن أعود إلى البيت، بصوتها الهادئ، كما لو أنهـــا لم تتفاجأ من وجودي خارج البيت في هذه الساعة المتأخرة. أعتقد أنني أتمشى على الرصيف الآخر، رصيف الظل، لأني أحسّ أن أمّي لم تعد تستطيع أن تفعل شيئا من أجلي.

أول مـــرة تم اعتقالي فيها، حدثت في الدائرة الباريسية التاسعة – في بدايـــة شارع دُووي، في تلك المخبزة التي تظل مفتوحة طوال الليل، عند حـــدود الساعة الواحدة صباحا، وكنت واقفةً إلى إحدى الطاولات العالية آكـــل فطيرة هلالية. وفي مثل هذا الوقت من الليل يمكن دائما العثور على أنـــاس غريبـــي الأطوار في هذه المخبزة، وهم في الغالب يأتون من المقهى

المقابــل، الــذي يدعى لو-سانس-سوسي. دخل شرطيان في لباس مدني للتحقــيق في أوراق الهُويّة. لم تكن معي أوراق هوية، وأرادوا معرفة سني. فضلت أن أقول الحقيقة. أصعدوني إلى سيارتهم بصحبة رجل أشقر طويل يلــبس ســترة مصنوعة من جلد الخروف المقلوب. كان يبدو أنه يعرف رجــال الشرطة. ربما كان واحدا منهم. في لحظة ما منحني سيجارة، لكن أحــد الــشرطيين مــنعه من ذلك: "إنها صغيرة السنّ... التدخين مضرّ بالصحة." بدا لي كما لو أن الشرطيين يخاطبانه بضمير المفرد.

في مكــتب مركــز الشرطة، طلبا مني اسمي العائلي والشخصي وتاريخ ميلادي وعنواني، ودوّنوها في سجلّ. قلت لهم إن أمّي تشتغل في مــولان-روج. قــال أحد الشرطيين، في ثيابه المدنية: "إذاً سوف نهاتفها". الشرطي الذي كان يدون في السجل منحه رقم هاتف مسرح مــولان - روج. وَضَع الرقم وهو ينظر في عينيّ. كنت في وضعية غير مــريحة. قال: "هل أستطيع التحدث إلى السيدة جونفييف ديلانك؟"، وكان لا يزال ينظر بشكل مستقيم في عينيّ. ثم سمعته يقول: "لا... لا تزعجوها..." وأغلق السماعة. وها هو الآن يبتسم في وجهي. أراد أن يخيفني. قال لي:"انتهى الأمر، بالنسبة لهذه المرة، ولكني سأكون مضطرا، في المــرة المقبلة، لإخبار والدتك." نهض من مقعده وخرجنا من مركز الــشرطة. وكان الرجل الأشقر ذو السترة المصنوعة من جلد الخروف المقلــوب ينتظر على الرصيف. أركبوني في المقعد الخلفي للسيارة. قال لي الــشرطي في اللــباس المدني: "سنصطحبك إلى بيتك". الآن أصبح يخاطبني بصيغة المفرد. نــزل الرجل الأسمر ذو السترة المصنوعة من جلد الخــروف المقلوب من السيارة في ساحة بلانش، أمام الصيدلية. كان الأمر غريبا أن أتواجد وحدي في المقعد الخلفي مع هذا الشخص الذي يقــود الــسيارة. توقف أمام باب العمارة، وقال لي، مرة أخرى: "هيّا

اذهبـــــي لتنامي، ولا تعاودي ما فعلتيه" قالها بصيغة الجمع[1]. أعتقد أنني تمتمتُ بجملة: "شكرا، سيدي". تمشيت نحو باب المدخل الرئيسي، وفي لحظـــة فتح الباب، استدرتُ خلفي. كان قد أوقف محرك السيارة و لم تفـــارقني عيناه، كما لو أنه يريد أن يتأكد من دخولي إلى العمارة. نظـــرت مـــن نافذة غرفتي، وكانت السيارة لا تزال واقفة. انتظرتُ، جـــبهتي ملتـــصقة بـــزجاج النافذة، وأنا كلي فضول كي أعرف كم يستطيع أن ينتظر. سمعت أزيز المحرك قبل أن تدور السيارة وتختفي من زاويـــة الـــشارع. عاودني شعور القلق الذي يستبد بـــي في كثير من اللـــيالي، والـــذي كان أقوى من الخوف، إنه إحساس بأني تُركتُ مع نفسي من دون أي حق للرجوع. لا أمي ولا أي شخص آخر. كنت أتمـــنى لو أنه بقي في الحراسة الليل كله أمام العمارة، طوال هذه الليلة والليالي القادمة، مثل خفير، أو بالأحرى ملاكٍ حارسٍ يسهر عليّ.

لكن القلق كان يختفي في مساءات أخرى، فأنتظر، بفارغ الصبر، خروج والدتي كي أخرج. أنـــزل الدرج وقلبـــي يدق بقوة، كما لو أني أذهـــب إلى موعد. ليست ثمة حاجة لاصطناع كذبة للحارسة ولا للبحث عن مبررات أو طلب أذونات. مِنْ مَنْ؟ ولماذا؟ لم أكُن متأكدة من العودة إلى الشقة. في الخارج، لم أكن أتتبع الرصيف المُظلَّل، ولكن رصـــيف مـــولان-روج. الأضواء تبدو لي أكثر عنفا من أضواء أفلام مكـــسيكو. تستولي عليّ ثمالة، خفيفة جدا... أحسست بواحدة مثلها حـــين تـــناولتُ كأس شمبانيا في مقهى سانت-سوسي. كانت الحياة أمامـــي. كيف استطعتُ أن أنكمش على نفسي وأنا أتلمّس الحيطان؟ خائفة من ماذا؟ سوف أتعرف على الناس. يكفي أن أَرتاد أي مقهى.

(1) تستخدم صيغة الجمع عند الحديث في اللغة الفرنسية للدلالة على التقدير وعدم رفع الكلفة بين المتحدثين.

تعرفت على فتاة، تكبرني قليلا، وتدعى جانيت غول. ذات ليلة كنت أعاني من صداع نصفي فدخلت في صيدلية ساحة بلانش لشراء دواء فـيغانين وقارورة أثير. وحين جاء الدفع اكتشفت أني لا أملك نقـودا. هـذه الفتاة الشقراء ذات الشعر القصير والتي كانت تلبس معطفـا مطـريا، والتي التقى نظري بنظرها - عيناها خضراوان - تقـدمت نحـو صندوق الدفع ودفعت من أجلي. كنت محرجةً، ولم أعـرف كـيف أشكرها. اقترحت عليها أن ترافقني إلى شقتي كي أعوضـها مالها. كنت دائما أحتفظ بقليل من المال على طاولة غرفة نومـي. قالت لي: "لا... لا... المرة القادمة" هي أيضا كانت تقطن الحي، لكن في الأسفل. كانت تنظر إليّ بعينيها الخضراوين. اقترحت علـيّ أن أتـناول مشروبا بصحبتها، بالقرب من منـزلها، ووجدنا نفـسينا في مقهى - أو بالأحرى في حانة في شارع لاروشفوكولد. أجواء هذه الحانة لا علاقة لها بأجواء مقهى كوندي. الحيطان كانت بتلبيس خشبـي فاتح الألوان، مثل الكونطوار والطاولات، ونوع من الزخـرفة الـزجاجية الملوّنة تطل على الشارع. مقاعد من المخمل الأحمر الداكن. الضوء مخفف. وخلف الكونطوار تقف سيدة شقراء في الأربعـين مـن عمـرها تعرفها جانيت غول جيدا لأنها تناديها بسوزان وتتحدث معها بضمير المفرد. قدمت لنا كأسين من بيمس شامبانيا.

قالـت لي جانـيت غول: "في صحتك". كانت لا تزال تبتسم وكـان عـندي الانطباع بأن عينيها الخضراوين تتفحصاني لتخمين ما يدور في خلدي. سألتني:

- هل تسكنين في هذا الحي؟

نعم. في الأعلى قليلا.

كانت توجد مناطق متعددة في الحيّ التي أعرف كل حدودها، بما فيها الحدود اللامرئية. وبما أني كنت خائفة و لم أكن أعرف ما الذي عليّ قوله، فقد أضفتُ: "نعم، أقيم في الأعلى. هنا، لسنا سوى في المنحدرات الأولى." قطّبت حاجبيها. "المنحدرات الأولى؟" هاتان الكلمتان أثارتا فضولَها، لكنها لم تفقد ابتسامتها. هل كان تأثير بيمس شامبانيا؟ ذاب خجلي. شرحتُ لها ما الذي تعنيه كلمتا "المنحدرات الأولى"، هذا التعبير الذي تعلّمتُهُ مثل كل أطفال مدارس الحيّ. انطلاقا من الحديقة الصغيرة العامة لاترينيتي تبدأ "المنحدرات الأولى". المنحدرات لا تتوقف عن الصعود إلى أن تصل إلى قصر برووياردس ومقبرة سانت - فانسونت، قبل أن تعاود النزول نحو كلينيانكورت، في الشمال.

قالت لي: "أنت تعرفين كثيرا من الأشياء". وأصبحت ابتسامتها ساخرة. تحدّثت إليّ بصيغة المفرد، بشكل مفاجئ، ولكن الأمر بدا لي طبيعيا. طلبت من سوزان كأسين أخريين. لم أكن متعودة على تناول المشروبات الروحية، والكأس الأولى كانت كافية. لكني لم أجرؤ على الرفض. وكي أنتهي من الكأس بسرعة تجرعت الشامبانيا بجرعة واحدة. كانت لا تزال تنظر إليّ، في صمت.

"هل تدرسين؟".

ترددتُ قبل الإجابة. حلمت دائما أن أكون طالبة، بسبب الكلمة التي أعتبرها راقية. لكن هذا الحلم كان قد أصبح صعب التحقيق بالنسبة لي في اليوم الذي رُفِض فيه طلبي للالتحاق بثانوية جيل - فيري. هل هي الثقة التي منحتني إياها الشامبانيا؟ مِلتُ نحوها، وربما كي أقنعها بشكل أفضل، قربت وجهي من وجهها:

- "نعم، أنا طالبة."

في هذه المرة الأولى، لم أُلاحظ وجود زبائن من حولنا. لا مقارنة مع مقهى لو كوندي. إذا لم أخْشَ من العثور على بعض الأشباح، فسوف أعود، عن طيب خاطر، ذات ليلة إلى هذا المكان كي أفهم جيدا من أين أتيت. لكن يتوجب توخّي الحذر. وعلى كل حال فمن الممكن أن أجد الباب موصدا. تغيّر المالك. كل هذا لم يكن له كثير من المستقبل.

"ماذا تدرسين؟"

أخذتني على حين غرة. ولكن سذاجة نظراتها شجعتني. لم تكن تتصور بالتأكيد أنني أكذب.

"في اللغات الشرقية".

بدا وكأنها تأثرت من جوابي. ولم تطلب مني، بعد ذلك، تفاصيل عن دراستي في اللغات الشرقية، ولا توقيت الدروس، ولا موقع المدرسة. كان عليها أن تكتشف أنني لا أرتاد أي مدرسة. ولكن الأمر، في نظري، كان بالنسبة لها ولي أيضا، نوعا من ألقاب الشرف التي أحملها، والتي نرثها من دون حاجة إلى فعل شيء. وكانت تقدمني إلى كل من يرتاد حانة شارع لاروشيفوكولد باعتباري "طالبة" وربما لا يزالون يتذكرونني هناك.

اصطحبتني هذه الليلة إلى منزلي. وبدوري، أحببت أن أعرف ما تفعله في الحياة. قالت لي بأنها كانت راقصة، لكنها بعد حادثة اضطرت إلى أن تتوقف عن هذه المهنة. راقصة كلاسيكية؟ لا، ليس تحديدا، على الرغم من أنها تلقّت تأهيلا في الرقص الكلاسيكي. واليوم أطرح على نفسي سؤالا ما كان ليخطر على بالي أبدا في تلك اللحظة: هل كانت راقصةً بقدر ما كنتُ، أنا، طالبة؟ تتبعنا شارع فونتين في اتجاه ساحة بلانش. أوضحت لي أنها في "هذه الأوقات" تعمل "شريكة"

مـــع المدعُوّة سوزان، وهي صديقة قديمة لها وتعتبرها نوعا من "أخت كبيرة". تشتغلان معا في المكان الذي اصطحبتني إليه هذا المساء، والذي هو مطعم في نفس الآن.

سألتني إن كنت أسكن وحدي. نعم، وحيدة مع أمي. أرادت أن تعـــرف مهنة والدتي. لم أتلفظ بكلمة "مولان - روج". أجبتها بجفاء: "خبيرة - محاسبة". على كل حال كان بمستطاعها أن تصبح "خبيرة - محاسبة". فهي تمتلك الجدية والكتمان.

افتـــرقنا عند باب العمارة الرئيسي. لم أكن أعود، كل ليلة، إلى هذه الشقة عن طيب خاطر. كنت أعرف أنه في يوم أو آخر سأغادرها بـــصفة نهائـــية. كنت أضع ثقة كبيرة في مثل هذه المواعيد التي سوف أجريها والتي ستضع حدّا لعزلتي. هذه الفتاة كانت أولى لقاءاتي، وربما ستساعدني على أن أنطلق بعيدا.

قلـــت لهـــا: "هـــل سنلتقي غداً؟". بدت مذهولة من سؤالي. طـــرحت عليها السؤال بطريقة مفاجئة ومن دون أن أنجح في إخفاء قلقي.

"بطبيعة الحال. متى تشائين..."

ألقت عليّ ابتسامة حنونة وساخرة، نفس الابتسامة التي صدرت منها منذ قليل، حين كنتُ أفسّر لها معنى "المنحدرات الأولى".

لدّي ثقوب في الذاكرة. أو بالأحرى بعض التفاصيل التي تعود إلى ذهني في فوضى. لم أشأ قط، منذ خمس سنوات، أن أفكر في كل هذا. وكـــان يكفـــي أن تمر سيارة التاكسي من هذا الشارع حتى أعثر من جديد على الواجهات المضاءة- روّاد الملاهي الليلية، والمهرّجون -... لم أعـــد أدري كيف يسمى المكان الموجود في شارع لاروشفوكولد. هل هو روج - كلواتر؟ أم شي دانتي؟ أم لوكانتير؟ نعم، لوكانتير. ما

كــان لأي واحد من رواد كوندي أن يرتاد لوكانتير. توجد في الحياة حــدود لا يمكن تخطيها. ومع ذلك تفاجأت جدا، خلال المرات الأولى الــتي دخلت فيها لوكوندي، من تعرفي على زبون سبق لي أن رأيتُه في لوكانــتير، وهذا الشخص يدعى رافائيل ويُعرف بلقب جاكوار... لم أكــن أستطيع، في الحقيقة، أن أخمن كونه كاتبا... لا شيء يميّزه عن الــذين يلعبون الورق والألعاب الأخرى في القاعة الصغيرة الموجودة في أقصى المقهى، خلف السياج الحديدي المطروق... تعرفتُ عليه. أمّا هو فقــد أحســستُ أن وجهي لا يُوحي له بشيء. هذا أفضل. يا له من شعور بالارتياح...

لم أفهــم أبــدا ما هو دور جانيت غول في لوكانتير. كانت في معظم الأوقات تسجل الطلبات وتقوم بخدمة الزبائن. كانت تجلس إلى طاولاتهم، وكانت تعرف معظمهم. قدّمت لي رجلا أسمر طويلا بملامح شــرقية، وهو يرتدي ملابس أنيقة، وكان يبدو من مظهره أنه حصل علــى تعلــيم عال، ويدعى أكّاد Accad، وهو ابن لطبيب في الحي. وكــان دائما مرافقا من قبل صديقين، غودينجير وماريو باي. أحيانا، كانــوا يلعــبون الورق وألعابا أخرى مع رجال أكبر سنا، في القاعة الــصغيرة الموجــودة في أقصى المقهى. ويدوم الأمر إلى حدود الساعة الخامــسة صــباحا. أحد اللاعبين كان، على ما يبدو، المالك الحقيقي لمقهى لوكانتير. كان في الخمسين من عمره وشعر رأسه رماديا وقصيرا، وكان في أزهى ملابس، هو الآخر، وكانت قسماته صارمة، وقد قالت لي عــنه جانيت بأنه كان "محاميا في السابق". أتذكر اسمه: موشيلّيني. وكــان، مــن حــين لآخر، ينهض من مجلسه ويلتحق بسوزان خلف الكونطــوار. في بعض الليالي كان هو من يشتغل مكانها، وكان يقدم بنفسه المشروبات، كما لو أنه يوجد في بيته وكما لو أن الزبائن كانوا

مدعـــوّيه. كان ينادي على جانيت بـــ "صغيرتي" أو "رأس الميت" من دون أن أعـــرف السبب، وفي المرات الأولى التي أتيت فيها إلى كانتير كـــان ينظـــر إليّ بـــبعض الحذر. ذات ليلة، سأل عن سنّي. زدت في عمري، وقلت له: "واحد وعشرون سنة". راقبني وهو يقطب حاجبيه، لم يصدقني. "هل أنت واثقة من سن الواحدة والعشرين؟" ازداد حرجي أكثـــر فأكثـــر وكنت على استعداد لمصارحته بعمري الحقيقي، ولكن نظـــره فقـــد فجـــأة كل صرامته. ابتسم في وجهي وهزّ كتفيه وقال: "طيب، لنقل واحدة وعشرين سنة."

كان لجانيت بعض الميل نحو ماريو باي. كان يضع نظارات ملونة بلون خفيف، ولكن لم يكن في الأمر أدنى تكلف. الضوء كان يسبب لـــه آلاما في العينين. في البداية كانت جانيت تعتقد أنه عازف بيانو، وقالـــت لي بأنه من هؤلاء الذين يعزفون في كافو أو في بلييبل. كان في الـــثلاثين من عمره، مثل أكّاد وكودينجير. لكنه لم يكن عازف بيانو، فماذا يفعل في حياته؟ وقد كان هو وأكّاد على علاقة وثيقة بموشيليني. وحـــسب جانيت فقد اشتغلا مع موشيليني حين كان لا يزال يشتغل محامـــيا. ومـــنذ تلك الحقبة وهما يشتغلان معه. في ماذا؟ قالت لي: في شـــركات. لكـــن ما الذي تعنيه كلمة "شركات"؟ كانوا يدعوننا إلى طـــاولاتهم في كانتير، وكانت جانيت تدعي أن أكّاد مُغرمٌ بـــي. منذ الـــبداية، أحسستُ أنها تريد لو أني أصبح صديقة معه، ربما كي تتوطد علاقاتها مع ماريو باي. أما أنا، فبالأحرى، كنت أحسّ أن كودينجير هـــو الذي يجدني على مذاقه. كان أسمر مثل أكّاد، ولكنه أطول منه. كانت جانيت تعرفه بدرجة أقل قياسا مع صديقيه. كان ثريا جدا فيما يـــبدو، وكان يمتلك سيارة يوقفها أمام كانتير. كان يقيم في الفندق، ويسافر كثيرا إلى بلجيكا.

ثقـــوب سوداء. ثم تفاصيل تقفز إلى ذاكرتي، تفاصيل دقيقة بقدر ما هي تافهة. كان يقيم في الفندق ويسافر كثيرا إلى بلجيكا. في ذلك المساء رددتُ هذه الجملة الغبية مثل لازمة مهدهدة ندندن بها في الظلام حتى نُطمْئِن أنفسنا. لماذا ينادي موشيليني جانيت برأس الميت؟ تفاصيل تخفي أخرى، أكثر قسوة. أتذكر أن جانيت زارتني في نوبي بعد ظهيرة يـــوم مـــا، قبل بضع سنوات. حدث الأمر بعد قرابة خمسة عشر يوما مـــضت على زواجي مع جون - بيير شورو. لم أستطع قط أن أدعوه باسم غير اسمه، جون - بيير شورو، ومن دون شك لأنه كان أكبر سنا مـــني، وأنه هو أيضا كان يناديني بميم الجمع. دقت الباب ثلاث مرات، كمـــا طلبت منها أن تفعل. في لحظة ما، أردت ألا أجيبها، كان الأمر سيكون غباء، كانت تعرف رقم هاتفي وعنواني. دخلتْ وهي تنـــزلق مـــن شقّ الباب كما لو أنها تدخل بطريق الخداع إلى الشقة لسرقتها. وهـــي في الصالون، ألقت نظرها على ما حولها، على الحيطان البيضاء، علـــى الطاولـــة الواطئة، على كومة المجلات، المصباح ذي الأباجورة الحمـــراء، على بورتريه والدة جون - بيير شورو، فوق الكنبة. لم تقل شيئا. كانت تهز رأسها، وتحرص على زيارة الشقة. وقد بدا أنها أصيبت بالذهـــول حين عرفت أن جون - بيير شورو وأنا، كل واحد ينام في غرفة لوحده. في غرفتي، استلقينا معا على السرير.

قالـــت لي جانيت، وهي تغرق في الضحك: "إذاً، فهو من عائلة كريمة".

لم أكن رأيتها منذ فندق شارع أرمايي. ضحكها يربكني. كنت أخـــشى أن تعيدني إلى الوراء، إلى فترة كانتير. إلا أنها حين قدمت العـــام الماضي، لزيارتي، في شارع أرمايي، أعلنت لي عن قطع علاقاتها مع الآخرين.

"غرفة حقيقية لامرأة شابة..."

علــى الــصوانة صورة جون - بيير شورو في إطار نحاسي أحمر رمّاني. نهضت ومالت نحو الإطار.

"برأيي أنه رجل جميل... لكن لماذا تنامين في غرفة لوحدك؟"

مــن جديد، استلقت بجانبــي على السرير. حينها قلت لها أنني أفضل أن أراها في مكان آخر على أن أراها هنا. كنت أخاف أن تحسّ بالضيق في حضور جون - بيير شورو، فلا نستطيع حينها أن نتحدث في حرية.

"أنت تخافين من أن آتي لرؤيتك مع آخرين؟"

ضـــحكتْ ولكـــن ضحكها كان أقلّ صراحة من السابق. صحيح، كنت خائفة، حتى في نويي، من الالتقاء بأكّاد. كنت مندهشة من كونه لم يعثر على أثري حين أقمت في الفندق، في شارع إتوال، ثم شارع أرمايي.

"كـــوني هادئة... هم غادروا باريس منذ فترة طويلة... إنهم في المغرب..."

داعبتْ جبهتي كما لو أنها تريد أن تهدئ من روعي.

"أفتـــرض أنك لم تتحدثي مع زوجك عن حفلات في كاباسود Cabassud".

لم يكـــن في حديثها، الذي صدر عنها للتوّ، أدنى سخرية. على العكـــس، تأثـــرتُ من نبرة صوتها الحزينة. كان ماريو باي، صديقها، الشخص ذو النظارات الملونة لونا خفيفا وذو أصابع عازف البيانو هو الـــذي يـــستخدم تعبير "حفلات" حين كانا يصطحباننا، أكّاد وأنا، لقضاء الليل في كاباسود، وهو نُزُلٌ بالقرب من باريس.

"الأمـــر هـــادئ، هـــنا... ليس كما هو الشأن في كاباسيد... هل تتذكرين؟"

تفاصيل كنتُ أريد أن أغمض عينيّ عنها كما هو الشأن إزاء ضوء حادّ. إلا أنه، في المرة الأخيرة، حين غادَرْنا أصدقاء غي دي فير وكنت راجعة إلى مونمارت مع رولاند، تركت عينيّ مفتوحتين. كل شيء كان واضحا جدا، وباترا جدا، ضوء زاهٍ يخطف بصري وانتهى بي الأمر إلى أن تعودت عليه. ذات ليلة في كانتير، وجدت نفسي في هذا الضوء ذاته مع جانيت إلى طاولة، بالقرب من المدخل. لم يكن ثمة أحد عدا موشيليني والآخرين الذين يلعبون الورق في القاعة القصية، خلف السياج. كان قد مضى وقتٌ طويل على عودة أمي إلى البيت. وكنت أتساءلُ إن كانت قلقة من غيابي. أتأسف على تلك الليلة التي جاءت فيها للبحث عني في مركز الشرطة في كراند - كاريير. انطلاقا من الآن كان عندي الإحساس المسبق بأنها لن تستطيع أبدا القدوم للبحث عني. كنت بعيدة جدا. قلق كان يستبد بي وكنت أحاول أن أحتويه، ولكنه منعني من التنفس. قرّبت جانيت وجهها من وجهي.

"أنت شاحبة جدا... ألست على ما يرام؟"

كنت أحاول أن أبتسم كي أطمئنها، ولكن كان الانطباع بأني أقطّب وجهي.

"لا... لا شيء..."

منذ أن غادرت الشقة، ليلا، كنت أتعرض لنوبات ذعر خاطفة، أو بالأحرى "انخفاض الجهد"، كما قال صيدلي ساحة بلانش، ذات مساء حين حاولت أن أشرح له ما أحسّ به. لكن كلما نطقت بكلمة بدت لي مغلوطة وغير مهمة. من الأفضل التزام الصمت. إحساس بالفراغ استولى عليّ في الشارع، فجأة. المرة الأولى، حدث الأمر أمام محل بيع التبغ، بعد تجاوز مقهى لوسيرانو. كان كثير من الناس يمرون

مـــن هنا، ولكن الأمر لم يبعث في نفسي الطمأنينة. كان سيُغْمى عليّ وكانوا يُواصلون المشي بشكل مستقيم من دون أن يعيروني أي اهتمام. انخفاض الجهد. انقطاع التيار. يجب عليّ أن أبذل مجهودا حول نفسي كـــي أعـــيد عقـــد الخيوط. في هذا المساء، كنت قد دخلت محل بيع الـــسجائر واشـــتريت طوابـــع وبطاقات بريدية وقلما وعلبة سجائر. جلـــست في الكونطـــوار، تناولت بطاقة وشرعت أكتب. "قليلا من الصبر. أعتقد أن الأمور تسير نحو الأفضل." أشعلت سيجارة وألصقت طابعـــا بـــريديا على البطاقة. لكن، لمن أوجهها؟ كنت أتمنى أن أكتب بـــضع كلمات على كل واحدة من البطاقات، كلمات واثقة: "الطقس جمـــيل، أقـــضي عطلـــة رائعة، أتمنى أن تكون أحوالكم على ما يرام. أقـــبلكم." جلست في الصباح الباكر على رصيف مقهى، على شاطئ البحر. وكتبت بطاقات بريدية إلى أصدقائي.

ســـألتني جانـــيت: "بم تـــشعرين؟ هل تحسّين بتحسن؟". وكان وجهها أكثر قربا من وجهي.

"هل تريدين أن نخرج كي نستنشق الهواء؟"

لم يَـــبْد لي الشارع مقفرا وصامتا، مثلما بدا لي الآن. كان مضاءا بمـــصابيح قادمة من زمن آخر. كان يكفي صعود المنحدر لنرى، على بعـــد مئات من الأمتار، حشود مساء السبت والواجهات المضيئة التي تعلن عن "أجمل عراة العالم" وحافلات السياح أمام مولان - روج... كنت خائفة من كل هذا الهيجان. قلت لجانيت:

"يمكن أن نبقى في نصف المنحدر..."

تمـــشينا إلى أن بلغنا المكان الذي تبدأ فيه الأضواءُ، مفترق الطرق في نهايـــة شارع نوتردام - دي - لوريت. لكننا رجعنا أدراجنا وتتبعنا اتجاها معاكسا لمنحدر الشارع. كنت أحسّ شيئا فشيئا بالارتياح وأنا

أنـــزل هذا المنحدر، من جهة الظل. يكفي أن نترك الأمور تسير على هـــواها. جانيت كانت تشدّ على ذراعي. أوشكنا أن نصل إلى أسفل المنحدر، في تقاطع لاتور - دي - دامس. قالت لي:

"ألا تريدين أن نتعرض لقليل من الثلج؟"

لم أفهم المعنى الدقيق لهذه الجملة، ولكن كلمة "ثلج" أثارتني. كان يتملكني الانطباع أنه سيتساقط من لحظة إلى أخرى ويجعل الصمت من حولنا أكثر عمقا. لن نسمع سوى صرير خطانا على الثلج. ساعة تدقّ في مكـــان مـــا، ولا أعرف السبب، اعتقدت أنها تعلن قدّاس منتصف اللـــيل. جانـــيت تقودني. تركت نفسي تنقاد لها. سلكنا شارع أومال الـــذي كانت كل عماراته مظلمة. من رآه سيقول بأن هذه العمارات تـــشكّل نفس الواجهة السوداء من كل جهة ومن طرف إلى آخر من الشارع.

"تعاليْ إلى غرفتي... سنتناول قليلا من الثلج..."

بمجـــرد أن نصل سأطلب منها أن تفسر لي ما الذي تعنيه: نتناول قليلا من الثلج. كان الطقس باردا جدا بسبب هذه الواجهات السوداء. هل كنتُ أُوجَد في حلم حتى أسمع صدى خطانا بمثل هذا الوضوح؟

لاحقـــا، سلكت مرارا الطريق نفسه، إما وحيدة أو معها. كنت أذهب لرؤيتها في غرفتها أثناء النهار، أو أقضي الليل عندها حين يتأخر بـــنا الوقت في كانتير. كان ذلك في فندق يقع في شارع لافيريير، وهو شارع يكوّن عطفة يشعر المرء داخله بأنه بعيد عن كل شيء، في منطقة المـــنحدرات الأولى. مصعد بباب مسيج. يصعد ببطء. كانت تقيم في الطابـــق الأخير، أو ما فوق. ربما لم يكن المصعد يتوقف هناك. همست في أذني:

"سوف ترين... سيكون الأمر رائعا.. سنتعرض لقليل من الثلج..."

كانـــت يداها ترتجفان. في الممر المعتم، كانت تشعر بعصبية إلى درجة أنها لم تنجح في إيلاج المفتاح في القفل.

"هيّا... حاولي... أنا لا أستطيع..."

أصـــبح صـــوتها متقطعا، أكثر فأكثر. وقد سقط المفتاح من بين يـــديها. ملت لالتقاطه بحذر. نجحت في إدخاله. الغرفة كانت مضاءة. ضوء أصفر يتساقط من مصباح السقف. السرير كان في حالة فوضى، والـــستائر مرفوعة. جلستْ على طرف السرير وأخذت تفتش في درج الطاولـــة، وأخرجت منه علبة ميكانيكية. طلبت مني أن أستنشق هذا المـــسحوق الأبيض التي تطلق عليه اسم "الثلج". بعد مرور وقت قصير مـــنحني هـــذا المسحوق إحساسا بالطراوة والرشاقة. جاءني اليقين بأن القلـــق والشعور بالفراغ اللذين استبدا بـــي في الشارع لن يعودا أبدا. ومـــنذ أن تحدث معي صيدلي ساحة بلانش عن انخفاض الضغط كنت أعـــتقد أنـــه يتوجب عليّ أن أصمد وأناضل ضدّ نفسي، وأن أحاول الـــتحكم في ذاتي. لكننا لا نستطيع شيئا، لقد تمت تربيتنا في الخشونة. المـــشي أو المـــوت. إذا ما سقطتُ، فإن الآخرين سيواصلون المشي في بولفار كليشي. لا يجب عليّ التعلق بالأوهام. ولكن الأحوال تتغير، من الآن فـــصاعدا. وعلى كل فإن شوارع وحدود الحي تبدو لي، بشكل مفاجئ، ضيقة جدا.

مكتـــبة - قرطاســـية بـــولفار كليشي تظل مفتوحة إلى الساعة الـــواحدة صـــباحا. ماتيي. اسم بسيط للواجهة. هل هو اسم صاحب المكتبة؟ لم أجرؤ أبدا على سؤال هذا الرجل الأسمر الذي يملك شاربين وبدلـــة برانس - دي - غال (أمير الغال)، والذي يجلس دائما خلف مكتـــبه، وهـــو منهمك في القراءة. كل مرة يقطع زبائن قراءته حين يشترون منه بطاقات بريدية أو دفتر ورق رسائل. في تلك الساعة التي

كنت آتي فيها، لم يكن هناك زبائن تقريبا، عدا بعض الأشخاص الذين يخرجون من (حانة) "مينوي شانسو" الموجودة بالقرب من المكتبة. كنا، في معظم الأحيان، وحيدين، هو وأنا. على الواجهة كانت موضوعة بشكل دائم نفس الكتب التي عرفت على الفور أنها روايات خيال علمي. نصحني بقراءتها. أتذكر عناوين بعض منها: حصاة في السماء، العابرة السرية. قرصان الفراغ. لم أحتفظ إلاّ بواحدة منها: الكريستال الذي يحلم.

يمينا على الرفوف بالقرب من الواجهة الزجاجية، تمّ ترتيب كتب مستعملة وهي مكرَّسة لعلم الفلك. وقد اكتشفتُ من بينها كتابا بغلاف برتقالي، نصفه ممزق، ويحمل عنوان: سفر في اللانهائي. لا أزال أمتلك هذا الكتاب. في مساء ذلك اليوم الذي أردت شراءه، وكان يوم سبت، كنت الزبون الوحيد في المكتبة، وكان ضجيج الشارع بالكاد يصل إلى الداخل. خلف الواجهة الزجاجية، كان ممكنا رؤية بعض عناوين المحلاّت المضاءة وحتى العنوان الأبيض والأزرق لـ "أجمل عراة العالَم" ولكنها كانت تبدو قصيّة جدا... لم أكن أجرؤ على إزعاج هذا الرجل المنهمك في القراءة، وهو جالس، ورأسه مائلة. ظللت صامتة خلال عشر دقائق قبل أن يدير رأسه نحوي. مددت له الكتاب. ابتسم: "هذا الكتاب، جيد. جيد جدا... سفر في اللانهائي..." كنت أتأهب لدفع ثمن الكتاب، لكنه رفع ذراعه، وهو يقول: "لا... لا... إني أمنحه لك... أتمنى لك سفرا ميمونا..."

نعم، لم تكن هذه المكتبة فقط ملاذا بل كانت أيضا محطة في حياتي. كنت أظل فيها، في كثير من الأحيان، إلى ساعة الإغلاق. كان ثمة مقعد بالقرب من الرفوف، أو بالأحْرى إسْكملة كبيرة[1]. كنت

---

(1) إسكملة: مقعد صغير من دون ظهر ولا ساعدين.

أجلس عليه لتصفح الكتب والألبومات المصورة. كنت أتساءل إن كان علـــى علم بوجودي. بعد بضعة أيام، ومن دون أن يتوقف عن قراءته، يـــنطلق بجملـــة، وهي دائما نفس الجملة: "إذاً، هل تجدين سعادتك؟" لاحقا، قال لي أحد الأشخاص، وبكثير من الثقة في النفس، بأن الشيء الوحـــيد الـــذي لا يمكننا تذكُّره هو نبرة الأصوات. إلا أنني، لا أزال الـــيوم، وخلال ليالي الأرق التي أعيشها، أسمع كثيرا الصوت ذا النبرة الباريـــسية - صـــوت الشوارع المنحدرة - وهو يقول لي: "إذاً، هل تجدين سعادتك؟" هذه الجملة لم تفقد شيئا من لطافتها ومن لغزها.

في المـــساء، وعند الخروج من المكتبة، كنت مندهشة من تواجدي في بولفار كليشي. لم تكن عندي رغبة كبيرة في النـــزول حتى الكانتير. كانـــت خطاي تجرّني نحو الأعلى. أحسّ الآن بلذة في صعود المنحدرات أو الأدراج. أحـــصي كل خطوة. عند الرقم 30، عرفتُ أنه تم تخليصي. بعـــد فتـــرة طويلة من الآن، دفعني غي دي فير إلى قراءة كتاب الآفاق الضائعة، قصة الناس الذين يتسلقون مرتفعات التبت نحو دير شانغري - لا مـــن أجـــل تعلم أسرار الحياة والحكمة. لكن لا حاجة للذهاب بعيدا جـــدا. كنت أتذكر نـــزهاتي في الليل. مونتمارت، بالنسبة لي، كان هو التـــبت. كـــان يكفيني منحدر شارع غولانكور. في الأعلى، أمام قصر بـــروبيارد، تنفست لأول مرة في حياتي. ذات يوم كنت فيه مع جانيت، وهربت من كانتير، عند الفجر. كنا ننتظر أكّاد وماريو باي اللذين كانا يـــريدان اصطحابنا إلى كاباسود بصحبة غودينجير وفتاة أخرى. كنت أختنق. ابتدعتُ مبررا للخروج لاستنشاق الهواء. وطفقت أعدو. كانت عـــناوين المحـــلاّت، في عين المكان، مضاءةً، وحتى عنوان محل مولان - روج. تركت نفسي تمتلئ بثُمالة ما كان للمشروبات الكحولية ولا للثلج أن يمنحاني إياها أبدا. صعدت المنحدر إلى قصر بروبيارد. كنت مصممة

جدا على ألا أرى أبدا عصابة كانتير. لاحقا، كنت أحسّ بنفس الثمالة كلمــا قطعــت علاقــاتي مع أحد الأشخاص. لم أكنْ نفسي، بشكل حقيقــي، إلا في اللحظــة التي أهرب فيها. ذكرياتي الجيدة الوحيدة هي ذكــريات الهروب والفرار. ولكن الحياة تتنتصر دائما. حين وصلتُ إلى ممــر بروبيارد، كنت على ثقة بأن شخصا ما على موعد معي وأن هذا الموعد سيكون انطلاقة جديدة. ثمة شارع، في الأعلى قليلا، أحب دائما أن أعــود إليه من يوم لآخر. سلكته هذا الصباح. هنا كان يتوجب أن يحدث الموعد. لكني لم أكن أعرف رقم العمارة. ليس الأمر مهما. كنت أنتظر علامة تدلني عليها. هناك، يُفضي الشارع إلى الفضاء الرحب، كما لو أنه يقود إلى شفا منحدر صخري. تقدمت يُخالجني شعور بالخفة كما يحــدث في الأحلام أحيانا. لم يعد ثمة خوف من أي شيء، كل الأخطار تافهــة. إذا جــرت هذه الأشياء بشكل سيء، فما على المرء سوى أن يــستيقظ. المرءُ لا يمكن هزيمته. كنت أتمشى وأنا مستعجلة للوصول إلى الــنهاية، هــناك حيث لا يوجد سوى زرقة السماء والفراغ. أي كلمة تتــرجم حــالتي النفــسية؟ لا أمتلك إلا مفردات زهيدة. ثمالة؟ انتشاء؟ انخطــاف؟ علــى كل حال، هذا الشارع أليف إلى نفسي. بدا لي أنني ســلكته من قبل. سوف أصل قريبا إلى شفا المنحدر الصخري وأقفز في الفــراغ. يــا لها من سعادة أن أسبح في الفضاء وأعرف إحساسا أخيرا بانعــدام الجاذبية كنت أبحث عنه دائما. أتذكر بكثير من الوضوح ذلك الصباح والزقاق والسماء في آخر المطاف...

ثم إن الحــياة واصلت مسيرها بأتراحها وأفراحها. في يوم كآبة، استبدلتُ، بقلم، الاسم الشخصي في غلاف كتاب "لويز العدم" الذي أعارني إيّاه غي دي فير، باسم "جاكلين العدم".

في ذلــك المساء، كنا كمِثْل من يحضر حفلة استحضار للأرواح. كــنا مجــتمعين في مكــتب غي دي فير وكان قد أطفأ المصباح. أو ببساطة، حدث انقطاع للتيار الكهربائي. كنا نسمع صوته في الظلام. وكان يتلو علينا نصا كان سيقرأه لو أن الضوء لم ينطفئ. ولكني لست عادلــة، إذْ كان غير دي فير سيكون مصدوما لو أنه سمعني أتحدث عن موضوع "الطاولات الدوّارة". إنه يستحق أفضل من هذا. كان سيقول بنبرة فيها عتاب رقيق: "هيّا! يا رولاند..."

أوقــد شمــوع شمعدان كبير مشعب كان يوجد فوق الموقد، ثم جلــس، من جديد، خلف مكتبه. وكنا نجلس على المقاعد المقابلة له، هــذه الفتاة وأنا وزوجان في الأربعينات من عمرهما، وكانا في هندام جميل ولهما ملامح بورجوازية، وقد التقيت بهما، هنا، لأول مرة.

أدرت وجهــي نحوها، فالتقت نظراتنا. كان غي دي فير لا يزال يتكلم، صدره مائل، بشكل خفيف، ولكنه طبيعي، تقريبا بنبرة حديث مألوف. في كل اجتماع يقرأ نصا يقدم لنا، لاحقا، نُسَخا مستنسخة. احــتفظتُ بنسخة هذا المساء. كانت عندي نقطة مَعْلَم. أعطتني رقم هاتفها وسجّلته في أسفل الورقة، بالقلم الأحمر.

"أقــصى درجات التركيز يتم تحقيقها والمرء متمدد ومغمض العيــنين. ولــدى أدنى مؤثر خارجي، يبدأ التشتت والانتشار. عند الوقــوف، تنــزع السيقان جزءا من القوة. العيون المفتوحة تخفض من التركيز..."

بـــصعوبة بالغة حبست قهقهة، وأتذكر ذلك لأنه لم يحدث لي مـــن قبل أبدا. ولكن ضوء الشموع يمنح تلك القراءة مهابة كبيرة. كـــان نظري يلتقي كثيرا نظرها. ولم تكن لها، فيما يبدو، رغبة في الضحك. بل العكس، كانت تبدو في بالغ الاحترام، بل كانت قلقة لأنهـــا لم تكن تفهم معنى الكلمات. انتهى بها الأمر إلى أن تنقل إليّ هـــذه الرزانة. شعرتُ بالخجل تقريبا من ردّة فعلي الأولى. بالكاد جـــرؤت علـــى تخيّل الإرباك الذي كنت سأحدثه لو أنني انفجرت ضاحكة. في نظرها كنت أعتقد أني رأيت طلبا للنجدة، تساؤلا. هل أنـــا جديـــرٌ بالتواجد معكم؟ شبك غي دي فير أصابعه. بدأ صوته يكتـــسي نـــبرة خفيـــضة، وكان يثبّتها بعينيه كما لو أنه لا يتوجّه بالحديث إلا إليها. كانت متحجرة من الأمر. ربما كانت تخشى أن يـــوجه إليها سؤالا مرتجلا، من قبيل: "وأنت، أريد أن أعرف رأيك في الموضوع."

عاد الضوء. ظللنا لبعض الوقت في المكتب، وهو أمر غير عادي. كانـــت الاجتماعات تجرى دائما في الصالون وكانت تجمع ما يقرب عـــشرة أشخاص. في هذا المساء، لم يكن هناك سوى أربعة أشخاص، ففضّل غي دي فير، من دون شك، أن يستقبلنا في مكتبه، بسبب العدد الصغير. وقد تم الأمر بناءً على موعد بسيط، من دون حاجة إلى الدعوة المألـــوفة التي يتلقاها المرء في منـــزله أو التي يتلقاها في مكتبة فيغا، إن كـــان المـــرء من روّادها. ومثلما أحتفظ بالعديد من النسخ المستنسخة فكذلك أحتفظ ببعض هذه الدعوات، وقد وقعت البارحة واحدةٌ منها بين يدي:

عزيزي رولاند

غي دي فير

سيكون سعيدا باستقبالكم

الخميس 16 يناير عند الساعة الثامنة مساء

5، سكوار لوفندال (باريس الخامسة عشر)

العمارة الثانية، يسارا

الطابق الثالث، على اليسار

البريستول الأبيض، دائما من نفس الحجم، والحروف المزخرفة (بالسلك) كان بإمكانها أن تعلن عن لقاء اجتماعي أو عن كوكتيل أو عيد ميلاد.

في ذلك المساء، رافقنا إلى باب الشقة. غي دي فير والزوجان اللذان أتيا لأول مرة كانوا يكبروننا بأكثر من عشرين سنة. وبما أن المصعد كان صغيرا جدا، ولا يتحمل أربعة أشخاص، فقد نزلنا، هي وأنا، في الدرج.

طريق خاصة محاطة ببنايات متشابهة ذات واجهات لها لون أسمر فاتح يميل للحمرة. نفس الأبواب الحديدية المصببة تحت مصباح. نفس صفوف النوافذ. ما أن نتجاوز السياج حتى نجد أنفسنا أمام الحديقة الصغيرة في شارع ألكسندر-كابانيل. حرصت على كتابة هذا الاسم، لأنه هنا التقى طريقانا. ظللنا، خلال لحظة، جامدَين وسط هذه الحديقة الصغيرة ونحن نبحث عن كلمات نتبادلها. أنا من قطعتُ الصمت:

"هل تقطنين في هذا الحي؟

- لا، أقطن بجانب منطقة إتْوال.

كنتُ أبحث عن مبرر كي لا أغادرها على الفور. "يمكننا أن نقتسم جزءا من الطريق."

كنا نتمشى تحت الجسر، على طول بولفارغرونيل. اقترحت عليّ أن نقطع مشيا خط الميترو الفضائي الذي يؤدي إلى إتْوال. وإذا ما أحسّت بالتعب، فهي تستطيع دائما أن تقطع باقي الطريق في الميترو. ربما كان يوم أحد مساء أو يوم عطلة. لم يكن ثمة من حركة مرور للسيارات، وكل المقاهي كانت مغلقة. في كل الأحوال، وحسب ذكرياتي، كنا، في تلك الليلة، في مدينة مقفرة. حين أفكّر، الآن، في ذلك اللقاء، يبدو مثل لقاء بين شخصين لم يكن لهما أي نقطة ارتكاز في الحياة. أعتقد أننا كنّا وحيدين في العالَم.

سألتها:

"هل تعرفين غي دي فير، منذ فترة طويلة؟

- لا. عرفته في بداية هذه السنة، عن طريق صديق. وأنت؟
- عرفته في مكتبة فيغا."

كانت لا تعرف وجود هذه المكتبة في بولفار سان - ميشيل التي كانت واجهتها تحمل هذه الكتابة بحروف زرقاء: *استشراق وديانات مقارنة*. في هذا المكان سمعت لأول مرة اسم غي دي فير. ذات مساء، قدّم لي صاحب المكتبة بريستول دعوة وهو يقول لي بأنه في إمكاني حضور الاجتماع. "إن هذا الاجتماع يناسب أناسا مثلك، بشكل كامل". كنت أود لو أني سألته عمّا يعنيه بـ "يناسب أناسا مثلك". كان ينظر إليّ بنوع من اللطافة ولا يبدو أن الأمر فيه تحقيرٌ. بل إنه اقترح أن "يُوصي" بـي غي دي فير.

"وهل هي جيدة، مكتبة فيغا؟"

طــرحت علــيّ السؤال بنبرة فيها سخرية. ولكن، ربما، كانت لكنتها الباريسية هي التي تمنحني هذا الانطباع.

"يمكن أن نعثر فيها على كثير من الكتب الهامة. سوف أصطحبك إليها."

كــنت أريد أن أعرف نوعية قراءاتها وما الذي جذبها إلى اجتماعات غــي دي فــير. كان أول كتاب نصحها بقراءته هو "آفاق ضائعة". وقد قرأته بكثير من الانتباه. وصلت إلى الاجتماع السابق قبل الجميع، فأدخلها دي فير إلى مكتبه. بحث في رفوف مكتبته التي تحتل حائطَيْن بأكملهما عن كــتاب آخــر يعيره إياها. بعد لحظة، وكما لو أن فكرة جاءت فجأة إلى ذهــنه، اتجــه نحو مكتبه وتناول كتابا كان يوجد بين كومة من الملفات والرســائل كانــت في حالــة من فوضى. قال لها: "تستطيعين قراءة هذا الكــتاب. لدي فضولٌ لمعرفة رأيك فيه." كانت فزعة جدا. يتحدث دي فير دائما مع الآخرين كما لو أنهم كانوا في مثل ذكائه وتكوينه. إلى متى؟ سينتهي به الأمر إلى أن يكتشف أننا لسنا في مستواه. الكتاب الذي منحه إياهــا، في ذلك المساء، يحمل عنوان: لويز العدم. لا، لم أكن أعرفه. كان قــصة حياة لويز العدم، وهي راهبة، مع كل الرسائل التي كتبتها. لم تكن تقرأ الكتاب في تسلسل صفحاته، كانت تفتح الكتاب عن طريق الصدفة. وقد تأثرت كثيرا من قراءتها لبعض الصفحات. تأثرها كان أكبر من قراءتها لكــتاب آفــاق ضــائعة. قبل أن تتعرف على دي فير سبق لها أن قرأت روايــات الخيال العلمي مثل رواية الكريستال الذي يحلم. وقرأت كتبا في علم الفلك. يا لها من صدفة... أنا أيضا أعشق كثيرا علم الفلك.

في محطــة الميتــرو بير – حكيم، تساءلت إن كانت ستركب في الميترو أم أنها لا تزال تريد أن تتمشى وتعبر نهر السين. من فوقنا، ووفق فترات منتظمة، كان ضجيج عربات الميترو، فسلكنا الجسر.

قلتُ لها:

"أنا أيضا أقطن في إتْوال. ربما غير بعيد جدا عن سكنك."

كانـــت تتردد. كانت تريد، من دون شك، أن تبوح لي بشيء يزعجها.

"أنا في الحقيقة، متزوجة... وأقيم عند زوجي في نوبي..."

كان يبدو كما لو أنها اعترفت لي بجريمة.

"وهل أنتما متزوجان منذ فترة طويلة؟

- لا. لـــيس مـــن فتـــرة طـــويلة... منذ شهر أبريل من العام الماضي..."

تمـــشينا من جديد. كنا قد وصلنا إلى وسط الجسر، إلى مستوى الدرج الذي يقود إلى ممر سينْي Cygnes. اندفعتُ نحو الدرج وتبعتها. نـــــزلت الـــدرجات بخطـــى واثقة، كما لو أنها تذهب إلى موعد. وأصبحت تحدثني، أكثر فأكثر، بسرعة.

"في فتـــرة معينة، كنت أبحث عن شغل... عثرت على إعلان... وكان الأمر يتعلق بسكرتيرة مؤقتة..."

لما وصلنا إلى الأسفل، تتبعنا ممر سينْي Cygnes. من كلا الجانبين يوجد نهر السين وأضواء الأرصفة. كان لديّ الانطباع بأني أوجد على جسر النـــزهة لقارب جانح في عز الليل.

"في المكـــتب، ثمة رجل شغّلني... كان لطيفا معي... كان أكبر سنّا مني... بعد بعض الوقت، أراد أن يتزوج..."

كـــان يـــبدو وكأنها تبحث عن تبرير تجاه صديق طفولة، لم تعد تملـــك عـــنه أي أخـــبار منذ فترة طويلة، وأنها التقت به، صدفة، في الشارع.

"لكنك، أنت، هل كان يروق لك أن تتزوجي؟"

حـــرّكت كتفـــيها، كما لو أنني تلفّظتُ بكلام سخيف. في كل لحظة، كنتُ أنتظر منها أن تقول: "ها، أنت الذي تعرفني جيدا..."

بعد كل شيء، ربما عرفتُها في حياة سابقة.

"كان يقول لي دائما إنه يريد لي الخير... هذا صحيح... إنه يريد لي الخير... إنه يتصرف قليلا مثل أبـــي..."

اعـــتقدت أنها تنتظر نصيحة من طرفي. من دون شك، لم تكن متعودة على الإفصاح عن أسرارها.

"لا يرافقك أبدا إلى الاجتماعات؟

- لا. إن له انشغالات كثيرة."

الـــتقتْ غي دي فير عن طريق صديق طفولة لزوجها. اصطحب زوجُها دي فير إلى بيتهما في نويي. منحتني كل هذه التفاصيل، مُقطِّبة الحاجبين، كما لو كانت تخشى أن تنسى بعضها، حتى أكثرها تفاهة.

وصـــلنا إلى نهايـــة الممر، مقابل تمثال الحرية. مقعد على اليمين. لـــست أدري مَـــن منّا اتخذ مبادرة الجلوس على المقعد، أو ربما جاءتنا نفس الفكرة معا في نفس اللحظة. سألتها إن لم يكن يتوجب عليها أن تـــدخل إلى منـــزلها. كانت هي المرة الثالثة أو الرابعة التي تحضر فيها اجـــتماعات غي دي فير، وتجد نفسها في نحو الساعة الحادية عشر ليلا أمام درج محطة كامبرون للميترو. وكل مرة أمام فكرة العودة إلى نويي تشعر بنوع من الإحباط، فقد حُكِم عليها من الآن فصاعدا أن تركب دائمـــا الميترو في نفس الخط. تغيير في محطة إِتوال، ثم نـــزول في محطة سابلونس...

كنت أحسّ باحتكاك كتفها بكتفي. قالت لي إنه بعد هذا العشاء حـــيث التقت بغي دي فير لأول مرة دعاها لحضور محاضرة ألقاها في قاعـــة صـــغيرة في أُودْيون. في ذلك اليوم كان موضوع المحاضرة يتعلق

بـــــ "ظهـــيرة مظلمة" و"الضوء الأخضر". عند خروجها من القاعة، تمشت، على غير هدى، في الحي. كانت تسبح في هذا الضوء الأخضر والـــصافي الذي تحدث عنه غي دي فير. الساعة الخامسة مساء. كانت ثمة حركة مرور كثيفة في البولفار وفي تقاطع الطرق في أُودْيون، وكان الـــناس يـــتدافعون وهي كانت تسير عكس التيار، ولم تُرِد أن تنـــزل معهـــم درجـــات محطة الميترو. شارع مقفرٌ يصعد، بهدوء، إلى حديقة ليكـــسمبورغ. وهـــناك، في نصف منحدر، دخلت مقهى، في زاوية عمـــارة: لوكـــوندي. "هل تعرف لوكوندي؟" سألتني، فجأة، بصيغة المفـــرد[1]. لا. لا أعـــرف الكـــوندي. لا أحـــب، والحق يقال، حيّ ليـــزيكول. إنه يذكرني بطفولتي وبِمهاجع ثانوية طُردْتُ منها ومطعم جامعـــي بالقـــرب من شارع دوفين، حيث كنت مرغما على ارتياده بـــبطاقة طالـــب مزورة. كنت أتلظى من الجوع. ثم كانت تلتجئ، في كـــثير من الأحيان، إلى الكوندي. تعرفتْ، بسرعة، على معظم رواد المقهى، وبشكل خاص، على كاتبِين: موريس رافائيل وأرثير أداموف. هـــل سمعتُ عنه؟ نعم. كنت أعرف مَنْ يكون أدموف. بل إني رأيتُهُ، مرات عديدة، بالقرب من سانت-جوليان-لو-بوفر. كان نظرُه قلقا. بل أقول إنه كان نظرا مذعورا. كان يتمشى من دون جوارب. لم تكن قرأتْ أي كتاب لآدموف. كان يطلب منها، أحيانا، في الكوندي، أن تـــرافقه إلى فـــندقه، لأنه كان يخشى المشي وحده، في الليل. ومنذ أن بـــدأت تـــرتاد المقهى، منحها الآخرون لقبا. كانت تدعى جاكلين، ولكـــنهم يدعـــونها الآن لوكـــي. لـــو أردتُ، لعرّفتني على آدموف والآخـــرين. وأيـــضا، على جيمي كامبيل، وهو مغني إنجليزي. وعلى صـــديق تونـــسي، علي شريف. نستطيع أن نلتقي، خلال النهار، في

(1) دلالة على عدم وجود الكلفة بين المتحدثين.

الكـــوندي. هي تذهب إلى المقهى حتى في المساء، حين يكون زوجها غائـــبا. هو يعود في معظم الأحيان، متأخرا، من عمله. رفعت رأسها نحـــوي، وبعد لحظة تردد، قالت لي بأنه في كل مرة يصبح الأمر أكثر صـــعوبة علـــيها عـــند العودة إلى بيت زوجها في نويي. كانت تبدو مهمومة و لم تنطق بعد بأي كلمة.

إنهـــا ساعة الميترو الأخير. كنا وحيديْن في عربة الميترو. وقبل أن تغيّر الميترو في إتوال، أعطتني رقم هاتفها.

لحـــد اليوم، يحدث لي أن أسمع، في المساء، صوتا يناديني باسمي في الـــشارع. صوت أجشّ. تجرّ قليلا المقاطع اللفظية فأتعرف عليها على الفور: إنه صوت لوكي. أدور، ولكن لا أحد. ليس فقط في المساء، بل في جـــوف ساعات ما بعد الظهيرة في الصيف حيث لا يعرف المرء في أيـــة سنة يوجد. كل شيء سيبدأ من جديد، كما من قبل. نفس الأيام ونفس الليالي ونفس الأمكنة ونفس اللقاءات. **العود الأبدي.**

كـــثيرا ما أسمع الصوت في أحلامي. كل شيء دقيقٌ جدا- حتى في أدنى التفاصـــيل- إلى درجة أنني أتساءلُ، في اليقظة، كيف أن هذا الأمـــر ممكن. في ليلة سابقة، رأيتُ في منامي أني أخرج من عمارة غي دي فـــير، في نفس الساعة التي خرجنا فيها، لوكي وأنا، للمرة الأولى. نظـــرت إلى ساعتي. الحادية عشر ليلا. في إحدى نوافذ الطابق الأرضي كـــان يوجد لبلاب. تجاوزت الحاجز المشبك وعبرت حديقة كامبرون الـــصغيرة في اتجـــاه الميتـــرو الهوائي حين سمعت صوت لوكي. كانت

تـــناديني: "رولاند..." مرتين. أحسستُ بالسخرية في صوتها. كانت تـــسخر مـــن اسمي، في البداية، وهو اسم لم يكن لي. اخترته لتبسيط الأمور، اسم شخصي يصلح في كل مناسبة، ويمكن أن أستخدمه أيضا كاســـم عائلـــي. رولاند، اسم عمليّ. بالإضافة إلى أنه اسم فرنسي، بـــشكل حقيقي. اسمي الحقيقي كان أكثر غرابة. في هذه الفترة كنت أتحاشـــى تـــسليط الاهتمام عليّ. "رولاند..." التفتُّ. لا أحد. كنت وســـط الحديقة الصغيرة، مثل المرة الأولى التي لم نكن نعرف فيها أي شـــيء نقوله لبعضنا. حينما استيقظتُ قررت التوجه إلى محل السكن السابق لغي دي غير لأتحقق من وجود لبلاب في نافذة الطابق الأرضي. ركبت الميترو إلى كامبرون. كان هو نفس خط الميترو الذي تتبعه حين تعود إلى بيت زوجها في نويي. كنت أصطحبها وكنا ننـــزل، في كثير مـــن الأحيان، في محطة أرجنتين، بالقرب من الفندق الذي كنت أقيم فـــيه. كـــل مرة، كانت تتمنى أن تظل طول الليل في غرفتي، ولكنها كانـــت تبذل جهدا أخيرا وتعود إلى نويي... ثم إنها، في إحدى الليالي، ظلت في غرفتي، في منطقة أرجنتين.

شعرتُ بإحساس غريب وأنا أتمشى صباحا في حديقة كامبرون الـــصغيرة، لأنه كنا دائما نتوجه، ليلا، إلى بيت غي دي فير. دفعت الحاجز المُشبَّك وقلت في نفسي إنه لا يوجد أدنى حظ في اللقاء به بعد كل هذا الوقت. لم تعد مكتبة فيغا قائمة في بولفار سان-جيرمان، و لم يعـــد غي دي فير موجودا في باريس. ولا لوكي. لكن اللبلاب كان موجودا في نافذة الطابق الأرضي، كما رأيته في منامي. الأمر تسبب لي في اضـــطراب كـــبير. هل كان الأمر، تلك الليلة، يتعلق، حقيقة، بحلـــم؟ بقيت، خلال بعض الوقت، متجمدا أمام النافذة. تمنيت سماع صـــوت لوكي. ستناديني مرة أخرى. لا. لا شيء. الصمت. لكن لم

يكن لديّ، بالمطلق، الانطباعُ بأن الوقت تغير منذ فترة غي دي فير. علـــى العكس تجمّد في نوع من الأبدية. تذكرت نصا حاولت كتابته حين تعرفت على لوكي. أطلقت عليه اسم، "المناطق المحايدة". توجد في باريس مناطق وسطى، مناطق غير مأهولة حيث كنّا على أطراف كـــل شيء، في مناطق مرور، أو مُعلّقة. نتمتع فيها ببعض الحصانة. كان بإمكاني أن أطلق عليها مناطق حرة، ولكن اسم "المناطق المحايدة" كان أكثر دقة. ذات مساء، في مقهى لوكوندي، طلبت من موريس رافائيل رأيه، باعتباره كاتبا. حرّك كتفيه ووجه إليّ ابتسامة ساخرة: "أنـــت مـــن يتوجب عليك أن تعرف، يا صاحبـــي... لست أدري بالـــتحديد مُـــرادك... لنقل "محايدة" ودعنا لا نتحدث عن هذا بعد الآن...". حديقـــة كامـــبرون الصغيرة والحي الموجود ما بين سيغير وديبلـــيكس، كل هذه الشوارع التي تفضي إلى معابر الميترو الهوائي تـــتعلق بهـــذه المنطقة المحايدة، ولم يكن من قبيل الصدفة أنني التقيت لوكي فيها.

أضعت هذا النص. خمس صفحات طبعتها على الآلة الكاتبة التي أعارني إياها زكريا، وهو من رواد مقهى كوندي. كنت قد كتبت في الإهداء: من أجل لوكي المناطق المحايدة. لا أعرف رأيها في هذا العمل. لا أعـــتقد أنها قرأت النص حتى النهاية. كان نصّا مثبّطا للعزم، بعض الـــشيء، عـــدّاً للدوائر الباريسية مع الشوارع التي تحدّد هذه الدوائر المحايدة. أحيانا، مجموعة بيوت، أو مدى واسع جدا. ذات يوم، ما بعد ظهيرة، كنا معا في الكوندي، قالت لي، وكانت قد قرأت للتو إهدائي: "هـــل تعرف، يا رولاند، أننا نستطيع الذهاب للإقامة، خلال أسبوع، في كل واحد من الأحياء التي تتحدث عنها..."

شـــارع أرجنـــتين حيث أستأجرُ غرفة في فندق يقع بالتأكيد في مـــنطقة محايـــدة. مـــن هو الذي يستطيع المجيء للبحث عني في هذا الشارع؟ الأشخاص القلائل الذين كنت ألتقيهم هناك من الممكن أنهم أصبحوا أمواتا في سجل الأحوال المدنية. ذات يوم وأنا أتصفح صحيفة قرأت في زاوية "إعلانات قضائية" مقالة صغيرة عنوانها: "إعلان غياب". شـــخص يُدعى تاريد لم يظهر في سكنه ولا سُمعت أخبارُهُ منذ ثلاثين ســـنة، وقررت المحكمة الابتدائية الكبرى أن تعلن أنه "غائب". أطلعتُ لوكـــي على هذا الإعلان. كنّا في غرفتي، شارع أرجنتين. قلت لها إني مـــتأكدٌ مـــن أن هذا الشخص كان يقطن في الشارع مع نحو عشرة أشـــخاص تمّ إعلانهم "غائبين"، هم أيضا. على كل فإن جميع البنايات المجـــاورة لفندقـــي تحمل كلها كتابة: "بنايات مؤثثة". أمكنة عبور لا يُطلـــب فيها هوية أحد وحيث يمكن للمرء أن يختبئ بها. في هذا اليوم احتفلـــنا مـــع الآخـــرين في الكوندي بعيد ميلاد لاهوبا. وقد دفعونا للشراب. وحين عدنا إلى الغرفة كنا ثملين بعض الشيء. فتحتُ النافذة. وناديـــت بأعلى صوت ممكن: "تاريد! تاريد!..." الشارع كان مقفرا وكان هذا الاسم يرنّ بطريقة غريبة. كان يُخيّل إليّ أن الصدى يُرجّعُهُ. اقتـــربت لوكي مني وصرخت هي الأخرى: "تاريد! تاريد!..." مزحة طفولية كانت تدفعنا للضحك. لكن انتهى بـــي الأمر إلى الاعتقاد بأن هذا الرجل سيظهر من جديد وأننا سنعيد الحياة إلى كل الغائبين الذين ينـــتابون هـــذا الشارع. بعد بعض الوقت جاء حارس الفندق الليلي وطرق باب الغرفة. قال بصوت منبعث من القبر: "من فضلكم، بعض الهـــدوء." سمعـــناه ينـــزل الدرج من خلال وقع خطاه الثقيلة. حينها استنتجت أنه، هو الآخر، غائبٌ مثل المدعو تاريد وكل الذين يختبئون في العمارات المؤثثة في شارع أرجنتين.

كنت أفكر فيه كلما حاذيت هذا الشارع كي أدخل إلى غرفتي. قالت لي لوكي بأنها قبل أن تتزوج أقامت، هي أيضا، في فندقين في هذا الحي، باتجاه الشمال قليلا، في شارع أرمايي ثم في شارع إتوال. في تلك الحقبة ربما تقاطعنا من دون أن يرى أحدنا الآخر.

أتذكر ذلك المساء الذي قررت فيه ألا تعود إلى زوجها. في ذلك اليوم عرَّفَتني، في الكوندي، على آدموف وعلي شريف. كنت أحمل آلة الكتابة التي أعارني إياها زكريا. كنت أريد البدء في طباعة نصّ "المناطق المحايدة".

وضعتُ الآلة على الطاولة الصغيرة المصنوعة من صنوبر المَناقع في الغرفة. وكانت تدور في رأسي الجملة الأولى: "تمتلك المناطق المحايدة على الأقل هذا الامتياز: إنها ليست سوى نقطة انطلاق، ونغادرها يوما أو آخر." كنت أعرف أن لا شيء، أمام الآلة الكاتبة، سيكون بسيطا. يتوجب من دون شك شطب هذه الجملة. والجملة التالية. على الرغم من أنني كنت ممتلئا بالشجاعة.

كان يتوجب عليها أن تدخل إلى بيتها في نويي للعشاء، لكنها في الساعة الثامنة، ليلا، كانت لا تزال مستلقية على السرير. لم تشعل مصباح السرير. انتهى بيّ الأمر أن ذكرتها بأن الساعة حانت.

"ساعة ماذا؟"

من نبرة صوتها أدركتُ أنها لن تركب أبدا الميترو كي تنزل في محطة سابلونس. عمّ صمت طويل بيننا. جلستُ أمام آلة الكتابة وضربت على لوحة مفاتيح الحروف.

قالت لي:

"يمكننا الذهاب إلى السينما لقضاء الوقت."

كـــان يكفـــي عـــبور جادة غراند-أرمي كي نقع على ستوديو أوبلـــيغادو. في ذلـــك المساء، لم يُعِر أحدنا اهتماما للفيلم. أعتقد أن المشاهدين كانوا قليلين في القاعة. هل هم أشخاص أعلنت محكمة عن كونهم "غائبين" منذ فترة طويلة؟ ونحن، من نكون؟ كنت ألتفت نحوها، في بعـــض المرات. لم تكن تنظر إلى الشاشة، كانت رأسها مائلة وتبدو أنهـــا ضائعة في أفكارها. كنت أخشى أن تهب من جلستها وتعود إلى نوبي. لكن لا شيء من هذا. ظلت جالسة حتى نهاية الفيلم.

لـــدى خروجنا من ستوديو أوبليغادو بدت لي مرتاحة. قالت لي إنه، من الآن فصاعدا، فات أوان العودة إلى زوجها. قالت إنه دعا، في ذلـــك الـــيوم، أصدقاء له لتناول طعام العشاء. هكذا انتهى الأمر. لن يكون أبدا ثمة عشاء في نُوبي.

لم نعد على الفور إلى الغرفة. تجولنا طويلا في هذه المنطقة المحايدة حـــيث كنا لاجئِين، معا، في فترات مختلفة. أرادت أن تريني الفندقين اللذين أقامت فيهما، في شارع أرمايي وشارع إتوال. أحاول أن أتذكر ما قالته لي في تلك الليلة. كان الأمر غامضا. لم تتبَقَّ سوى مقتطفات. وقـــد أصـــبح مـــن الصعب الآن استعادة التفاصيل التي تنقص أو التي نـــسيتها. غـــادرتْ أمها، وهي صغيرة السن، كما غادرت الحي الذي أقامت فيه معها. أمها رحلت عن هذا العالم. لم يتبق لها سوى صديقة مـــن تلك الحقبة، تراها من حين لآخر، وتدعى جانيت غول. تعشينا، مـــرتين أو ثلاثا، مع جانيت غول في شارع أرجنتين، في مطعم متهدم بالقـــرب مـــن فندقي. شقراء وعينان خضراوان. قالت لي لوكي بأنهم يـــنادونها بـــرأس الميت بسبب وجهها النحيل الذي يتناقض مع جسد رشـــيق. في فتـــرة لاحقة، زارتها جانيت غول في فندق شارع سيلس وكـــان علـــيّ أن أطرح على نفسي أسئلة في اليوم الذي فاجأْتُهُما في

الغـــرفة حـــيث تفوح رائحة الأثير. ثم إنه ذات يوم، ما بعد الظهيرة، وكان فيه نسيم وشمس على ضفاف نهر السين، مقابل نوتردام... كنت أتصفح الكتب في علب بائعي الكتب المستعملة وأنا أنتظرهما معا. قالت جانـــيت إن عــــندها مـــوعدا في شارع غراند - دوغري مع شخص سيحـــضر لها "قليلا من الثلج"... كانت تضحكها كلمة "ثلج" ونحن كـــنا في شـــهر يولـــيو... في إحدى العلب الخضراء عند بائع الكتب المستعملة عثرت على كتاب جيب يحمل عنوان الصيف الجميل. نعم، كان جميلا لأنه بدا لي أبديا. فجأة، رأيتهما على الرصيف الآخر. كانتا قادمتين من شارع غراند - دوغري. أشارت لي لوكي بذراعها. كانتا تـــتقدمان باتجاهـــي في الشمس والصمت. هكذا تبدوان معا كثيرا في أحلامـــي، بالقـــرب من سانت - جوليان - لي - بوفر... أعتقد أني كنت سعيدا، في ما بعد ظهيرة ذلك اليوم.

لم أفهـــم سبب إطلاق لقب رأس الميت على جانيت غول. هل بـــسبب وجنتيها العاليتين وعينيها الضيقتين؟ إلا أنه لا شيء في وجهها يستحـــضر المـــوت. كانت لا تزال توجد في لحظة يعتبر فيها الشبابُ أقوى من كل شيء آخر. لا شيء يترك عليها أدنى أثر، لا ليالي الأرق ولا الـــثلج، كمـــا كانت تقول. لكن إلى متى؟ كان يتوجب عليّ أن أحْذر منها. لم تكن لوكي تصطحبها معها إلى كوندي وإلى اجتماعات غـــي دي فـــير كمـــا لو كانت هذه الفتاة تمثل الجزء المظلم منها. لم أسمعهمـــا يـــتحدثان، في حـــضوري، عن ماضيهما المشترك، إلا مرة واحدة، وكان بطريقة مواربة. خيّل إليّ أنهما كانتا تخفيان أسرارا. ذات يـــوم خـــرجت فيه من محطة ميترو مابيون، بصحبة لوكي، في يوم من شهر نوفمبر، نحو الساعة السادسة مساء، وكان الليل قد أرخى سدوله، تعـــرّفتْ علـــى شخص جالس إلى طاولة من خلف الواجهة الزجاجية

لمقهـــى لابيرغولا. صدرت عنها حركة ارتداد خفيفة إلى الوراء. كان الرجل في الخمسين من عمره، بوجه صارم وشعر أسمر مطليّ. كان في مقابلنا تقريبا، وكان باستطاعته، هو أيضا أن يرانا. لكني أعتقد أنه كان مـــنهمكا في الحـــديث إلى شخص بجانبه. تناولتْ ذراعي وجرتني إلى الجهة الأخرى من شارع فور. قالت لي إنها تعرفت على هذا الشخص قـــبل سنتين مع جانيت غول، وإنه كان يدير مطعما في الدائرة التاسعة مـــن بـــاريس. لم تكن تتوقع على الإطلاق أن تجده هنا، على الضفة اليـــسرى مـــن العاصمة. كانت تبدو قلقة. استخدمت كلمتي "الضفة اليـــسرى" كمـــا لو أن نهر السين كان الخط الفاصل الذي يفصل بين مدينـــتين غـــريبتين، الواحدة عن الأخرى، نوع من سياج حديدي. والرجل الجالس في لابيرغولا نجح في تخطي هذه الحدود. حضوره، هنا، في مفتـــرق طرق أُودِّيون، يزعجها حقيقة. سألتُها عن اسمه. موشيليني. ولمـــاذا تـــريد تجنـــبه. لم تجبني بطريقة واضحة. قالت لي فقط إن هذا الـــشخص يبعث فيها ذكريات سيئة. حين كانت تقطع الصلات مع الآخـــرين فالمسألة نهائية، والآخرون في عداد الموتى في نظرها. إذا كان هـــذا الرجل لا يزال حيا، وثمة مخاطر أن يلتقي بها، فمن الأجدى تغيير الحيّ.

طمأنـــتُها. لابيرغولا ليس مقهى مثل كل المقاهي، كما أن روّاده الملتبِـــسين، بعـــض الشيء، لا يتلاءمون على الإطلاق مع الحيّ المُجدّ والبوهيمي الذي نتمشى فيه. قالت لي إن هذا الشخص التقته في الدائرة التاسعة. حسنا، إن لابيرغولا، تحديدا، هي نوع من ملحقة في سان – جيرمـــان – دي – بري لحيّ بيغال من دون أن نعرف جيدا السبب. يكفـــي اختيار الرصيف الآخر وتجنب لابيرغولا. ليست ثمة من حاجة لتغيير الحيّ.

كـــان عليّ أن ألحّ عليها كي تبوح لي أكثر، لكني كنت أعرف علـــى وجه التقريب ما الذي ستجيبني به، هذا إن كانت لديها بالفعل رغـــبة في الإجابـــة... خالطـــت في طفولتي ومراهقتي كثيرا من أشباه موشـــيليني، مـــن هؤلاء الأفراد الذين لا نعرف أي نوع من التجارة يقومـــون به... أَلَمْ أَرَ أبـــي، كثيرا، وهو في صحبة هؤلاء؟ بعد كل هـــذه الـــسنوات أصـــبح باستطاعتي القيام بتحريات بخصوص المدعو موشـــيليني. لكن ما الفائدة؟ لن أعرف شيئا عن لوكي أكثر مما أعرفه عـــنها الآن أو أكثـــر مـــن ما خمّنتُهُ. هل نحن مسؤولون، حقيقة، عن الممثلين الثانويين الذين لم نختره والذين نلتقيهم في بدايات حياتنا؟ هل أنـــا مسؤول عن أبـــي وعن كلّ الأشباح الذين كانوا يتحدثون معه بـــصوت مـــنخفض في ردهات الفنادق أو القاعات الخلفية في المقاهي والـــذين يـــنقلون حقائب لا أزال لحد الساعة أجهل محتواها؟ في هذا المـــساء، وبعد هذا اللقاء السيء، تمشينا في بولفار سان-جيرمان. حين دخلنا مكتبة فيغا، بدا عليها الارتياح. كانت تمسك بقائمة كتب طلب مـــنها غي دي فير شراءها. لا أزال أحتفظ بهذه القائمة. وكان يقدمها لكـــل من يحضر اجتماعاته. وكان متعودا على القول: "لستم مرغمين على قراءة كل شيء في نفس الوقت. اختاروا، بالأحرى، كتابا واحدا واقرأوا منه صفحة كل مساء، قبل أن تخلدوا للنوم."

الأنا الأخرى السماوية

صديق الرب في أوبيرلاند

نشيد اللؤلؤة

عمود الفجر

منقذو كنـــز الضوء الإثنا عشر

أعضاء أو مراكز غامضة
مَوردة اللغز
الوادي السابع

كانـــت عبارة عن كراريس صغيرة ذات غلاف أخضر شاحب. في البداية كان يحدث لنا، لوكي وأنا، في غرفتي في شارع أرجنتين، أن نقرأها بصوت عال. كان نوعا من نظام، حين لا تكون معنوياتنا على مـــا يرام. أعتقد أننا لم نكن نقرأ هذه الأعمال بنفس الطريقة. كانت تـــتمنى أن تكتـــشف فيها معنىً للحياة، بينما كانت تأسرني فيها نبرة الكلمـــات وموســـيقى الجُمـــل. في هذا المساء، في مكتبة فيغا، بدا لي وكأنهـــا نـــسيت المدعـــو موشيليني وكل الذكريات التي يذكرها بها. أكتـــشف اليوم أنها لم تكن تبحث فقط عن مجرد خطة عمل وهي تقرأ الكراريس ذات الأغلفة الخضراء الشاحبة وبيوغرافيا لويز العدم. كانت تـــريد الهروب والفرار بعيدا جدا، وقطع العلاقة بصفة عنيفة مع الحياة العاديـــة، كـــي تتنفس الهواء الطلق. ثم إنه كان يوجد أيضا ذُعرٌ، من وقـــت لآخر، من منظور أن الممثلين الثانويين الذين يتركهم المرءُ خلفه يمكـــن أن يعثـــروا عليه ويطالبونه بتسديد الحساب. يتوجب الاختباء للتخلص من هؤلاء المبتزّين على أمل أن يكون المرء، في يوم من الأيام، بعيدا عن متناولهم، بشكل نهائي. هناك، في هواء أعالي القمم. أو هواء أعالي البحار. أفهم جيدا هذا الشيء. أنا أيضا لا أزال أجرّ الذكريات الـــسيئة وصُوَر كابوس طفولتي التي أريدُ أن أوجّه لها صفعة قوية، مرة واحدة للأبد.

قلـــت لهـــا إنـــه من البلاهة تغيير الرصيف. وانتهى بـــي الأمر بإقناعها. لن نتجنب، من الآن فصاعدا، عند الخروج من ميترو مابيون،

المرور بالقرب من مقهى لابيرغولا. بل إنني استطعتُ، ذات مساء، أن أجـــرّها إلى داخـــل المقهـــى. ظللنا واقفيْن أمام الكونطوار وانتظرنا موشيليني بثبات. انتظرنا كل أشباح الماضي. معي، لم تكن تخشى شيئا. لـــيس ثمة من وسيلة أفضل من النظر بشكل مستقيم في عيون الأشباح كـــي تتبدد. أعتقد أنها كانت تستعيد الثقة في النفس وأنها لن تصاب بالتردد لو أن موشيليني ظهر أمامها. نصحتها بأن تردد له بصوت حازم الجملة المألفة لديّ في مثل هذه المواقف: "لا، يا سيدي... لست أنا... أنا آسفة... أنت مخطئ..."

عبـــثاً انتظرنا موشيليني، في هذا المساء. و لم نره، بعد ذلك، أبدا خلف زجاج النافذة.

في شـــهر فبرايـــر، الـــذي توقفت فيه عن العودة إلى بيت زوجها، تـــساقطت ثلوج كثيرة، وخيّل إلينا، ونحن في شارع أرجنتين، أننا ضائعان في فندق في جبل شاهق. لاحظتُ أنه من الصعب العيش في منطقة محايدة. ومـــن الأفضل، حقيقة، الاقتراب من الوسط. الشيء الأكثر إثارة للدهشة في شـــارع أرجنتين، علما أنني أحصيتُ العديد من الشوارع الباريسية التي تـــشبهه، هـــو أنه لا يتلاءم مع الدائرة التي يعتبر جزءا منها. لم يكن يشبه شـــيئا، كان منفصلا عن الكل. بهذه الطبقة من الثلوج يفضي الشارع من جانبيه إلى الفراغ. عليّ أن أعثر من جديد على قائمة الشوارع التي ليست شوارع محايدة فقط، ولكنها ثقوبٌ سوداء في باريس. أو بالأحرى شظايا لهـــذه المـــادة المظلمة التي تتعلق بعلم الفلك، وهي مادةٌ تجعل كل شيء لا مـــرئيّا وتُقاوم حتى ما فوق البنفسجي وما تحت الأحمر وأشعة إكس. نعم، على مر الأيام، نحن نُخاطِر بأن تستهوينا المادة السوداء.

لم تكـــن تريد البقاء في حيّ قريب جدا من سكن زوجها. يبعد عنه بالكاد، بمحطتي ميترو. كانت تبحث في الضفة اليسرى عن فندق

في محـــيط كوندي أو شقة غي دي فير. هكذا تستطيع فضاء حوائجها مـــشيا على القدمين. لكني كنت أخاف العودة من الجانب الآخر لنهر الـــسين في اتجـــاه الدائرة الباريسية السادسة المرتبط بطفولتي. كثير من الذكـــريات الأليمة... ولكن ما الفائدة من الحديث عن هذا ما دام أن هذه الدائرة ليس لها وجودٌ اليوم سوى بالنسبة لمن يمتلكون فيها محلات الكمالـــيات والأثـــرياء الأجانب الذين يشترون فيها شققا... في تلك الفتـــرة، كنت لا أزال أجد فيها آثار طفولتي: الفنادق الخَرِبة في شارع دوفـــين وســـقيفة التعليم المسيحي ومقهى ملتقى طرق أُودْيون حيث يتاجر بعض الهاربين من العسكرية من القواعد الأمريكية والدّرج المظلم في فـــيرا - غالانت؟ Vert-Galant وهذه الكتابات على الحائط القذر في شـــارع مـــازارين، التي كنت أقرأها كلما توجّهت إلى المدرسة: لا تشتغلوا أبدا.

حـــين استأجرتْ غرفة، جهة الجنوب، حول مونبارناس، بقيتُ في محيط إتْوال. أردتُ تجنب مصادفة الأشباح، في الضفة اليسرى من باريس. وما عدا كوندي ومكتبة فيغا كنت أفضل ألا أتأخر في حيّي القديم.

ثم إنه توجّب توفير المال. باعت معطفها المصنوع من الفرو الذي كـــان من دون شك هدية من زوجها. لم يتبقّ لها سوى قميص مطريّ لمواجهة فصل الشتاء. كانت تقرأ الإعلانات الصغيرة كما كانت تفعل قبيل زواجها. ومن حين لآخر، كانت تذهب إلى منطقة أُوتُوي لرؤية صـــاحب مرآب، وكان صديقا قديما لوالدتها، والذي كان يساعدها. بالكاد أجرؤ على البوح بنوعية الأشغال التي كنت أقوم بها. لكن، لماذا إخفاء الحقيقة؟

شخص يدعى بيرود - بيدوان، يسكن في مجموعة بيوت محاذية لفندقي. وبالتحديد في 8 من شارع سايغون. في بيت مؤثث. أصادفه كثيرا و لم أعد أتذكر المرة الأولى التي تحدثنا فيها معا. هو شخص من النوع المداهن وبشعر متماوج، وهو دائما يلبس بطريقة فيها بعض التكلف ويتظاهر بطلاقة اجتماعية. كنت جالسا مقابله إلى طاولة في مقهى - مطعم في شارع أرجنتين، في ما بعد ظهيرة يوم من ذلك الشتاء الذي تساقط فيه الثلج على باريس. قلت لهُ بأنني أرغب في "الكتابة" حين ألقى عليّ السؤال المعتاد: "وأنت، ماذا تفعل في حياتك؟". أما بيرود-بيدوان، فلم أفهم جيدا ماذا كانت عليه حالته الاجتماعية. رافقتُهُ، ما بعد ظهيرة هذا اليوم، إلى "مكتبه"، الذي قال عنه إنه "قريب جدا من هنا."كانت خطانا تترك آثارها على الثلج. وكان يكفي المشي بشكل مستقيم حتى نصل إلى شارع شالغرين. تصفحتُ دليل هاتف عتيق لهذه السنة كي أعرف أين "يشتغل" بيرود- بيدوان، بالتحديد. أحيانا نتذكر بعض المراحل من حياتنا ونحتاج إلى أدلّة كي نكون متأكدين من أننا لم نكن نحلم. 14، شارع شالغرين. "المنشورات التجارية الفرنسية". لا بد أن يكون هنا. لا أشعر، اليوم، بالشجاعة في التوجه إلى عين المكان والتعرف على البناية. أصبحتُ هرما. في ذلك اليوم، لم يُصعدني معه إلى مكتبه، لكننا التقينا في اليوم التالي في نفس الساعة وفي نفس المقهى، اقترح عليّ عملاً. كان الأمر يتعلق بكتابة العديد من الكراريس المتعلقة بشركات أو منظمات يشتغل فيها، بطريقة أو بأخرى، كوسيط تجاري متجول أو عميل إعلاني، تقوم دار النشر التي يديرها بطبعها. وسيمنحني خمسة آلاف فرنك في تلك الفترة. هو الذي يُوقّع النصوص، بينما أشتغل معه مساعدا له. وسيزودني بكل الوثائق. بهذه الطريقة اشتغلت على تنفيذ ما يوازي

عشرة أعمال صغيرة، من قبيل المياه المعدنية في بوربول، السياحة في كوت إيمرود، تاريخ الفنادق والكازينوهات في بانيوليس - دي - أورن، كما اشتغلت على أبحاث مكرّسة لبنوك جوردان وسيليغمان ومياربود وديماشي. وكنت كلما جلست إلى طاولته أخاف من أن أنام من الضجر. لكن الأمر كان سهلا، يكفي تنفيذ إشارات بيرود-بيدوان. تفاجأت في المرة الأولى التي اصطحبني فيها إلى مقر المنشورات التجارية الفرنسية: غرفة في الطابق الأرضي من دون نوافذ، لكن في مثل العمر الذي كنت فيه، لا يطرح المرء كثيرا من الأسئلة. تكون عندنا ثقة في الحياة. بعد مرور شهرين أو ثلاثة، لم يَرِدْني أي خبر من الناشر. لم يُسلم لي سوى نصف المبلغ الموعود الذي كان كافيا لي بشكل كبير. ذات يوم - لِم لا يكون غداً إذا كنت أمتلك القوة - يتوجب عليّ أن أذهب للتنزه في شارعي سايغون وشالغرين، المنطقة المحايدة التي اختفى فيها بيرود-بيدوان وكذا المنشورات التجارية الفرنسية مع ثلوج هذا الشتاء. لكن بعد تمحيص لم تكن لديّ الشجاعة، حقيقة. بل إني أتساءلُ إن كانت هذه الشوارع لا تزال موجودة و لم تبتلعها، إلى الأبد، المادة السوداء.

أفضل صعود جادة الشانزيليزيه مشيا على القدمين ذات مساء ربيعي. لا وجود لها اليوم، حقيقة، ولكنها في الليل لا تزال تخلق هذا الوهم. ربما سأسمع في جادة الشانزليزيه صوتك يناديني باسمي الشخصي... في اليوم الذي بعتِ فيه معطف الفرو والزمرُّد الذي كان بمثابة مسمار للزخرفة، كان لا يزال بحوزتي مبلغ ألفي فرنك من مال بيرود-بيدوان. كنا ثريَيْن، وكان المستقبل لنا. في ذلك المساء، كان

لطفا منك أن لحقت بي في حيّ إتوال. كان الوقت صيفا، نفس الوقت الذي التقينا فيه على ضفاف السين مع رأس الميت وكنت أرَاكُما، معا، تتقدمان باتجاهي. توجهنا إلى مطعم في ركن شارع فرانسوا الأول وشارع ماربوف. وضع صاحب المطعم طاولات على الرصيف، وكان الوقت لا يزال نهارا. لم تكن ثمة حركة مرور للسيارات وكان بالإمكان سماع همسات الأصوات ووقع الخطى. في نحو الساعة العاشرة ليلا، حين نزلنا جادة الشانزيليزيه، تساءلتُ إن كان الليل قد توقف عن الانسدال وإن لمْ يتحول إلى ليلة بيضاء كما هو الشأن في روسيا وفي دول الشمال. تمشينا على غير هدى، كان كل الليل أمامنا. كانت لا تزال آثار الشمس تحت قناطر شارع ريفولي. إنها بداية الصيف، وسوف نسافر قريبا. إلى أين؟ لا نعرف لحد الساعة. ربما إلى مايوركا أو إلى المكسيك. ربما إلى لندن أو إلى روما. الأمكنة لم تعُد لها أية أهمية، ويشبه بعضها البعض. هدفنا الوحيد من السفر هو التوجه إلى قلب الصيف، حيث يتوقف الزمن وحيث عقربا الساعة يشيران دائما إلى نفس الساعة: الظهيرة.

في بالي - رويال، أسدل الليل ذيوله. توقفنا، للحظة، على رصيف روك - يونيفيرس قبل أن نعاود السير. تبعنا كلبٌ طول شارع ريفولي حتى سانت - بول. ثم دخل إلى الكنيسة. لم نشعر بأي تعب، وقالت لي لوكي بأنها تستطيع المشي طوال الليل. عبرنا منطقة محايدة قبل أن نصل إلى أرْسُنال، بضع شوارع مقفرة يمكن للمرء أن يتساءل إنْ كانت مسكونة. لاحظنا في الطابق الأول لإحدى العمارات نافذتين كبيرتين مضاءتين. جلسنا على مقعد، في المقابل، ولم نستطع منع نفسينا من النظر إلى هاتين النافذتين. كان ثمة مصباح أحمر عاكس للنور، في العمق، هو الذي ينشر هذا الضوء الأعمى. استطعنا تمييز مرآة

في الإطار المذهب على الحائط الأيسر. الحيطان الأخرى كانت عارية. رصـــدتُ شبحا يمر من وراء النافذتين، ولكن لا أحد، فيما يبدو، كان في هذه الغرفة التي لا نعرف إن كانت صالونا أم غرفة للنوم.

قالت لي لوكي:

"علينا أن ندق على باب الشقة. أنا متأكدة من أن أحدا ينتظرنا."

كـــان المقعـــد يـــوجد في وسط ما يشبه نوعا من مصطبة ترابية شكّلها تقاطُع شارعَين. بعد سنوات عديدة من هذه اللحظة، كنت في ســيارة تاكـــسي تحاذي أرسنال، في اتجاه ضفة نهر السين، طلبت من السائق أن يتوقف. كنت أريد أن أعثر على المقعد وعلى العمارة. كنت أتمـــنى أن أجد النافذتين الموجودتين في الطابق الأول مضاءتين، بعد كل هـــذا الزمن. لكني أوشكت أن أضيع في بعض الشوارع الصغيرة التي تفضي إلى أسوار ثكنة سيليستينس. في تلك الليلة قلتُ لها إنه ليس من المفيد أن ندق على الباب. لن نجد أحدا. ثم إننا على ما يرام، هنا، على هذا المقعد. بل إنه تناهى إلى سمعي انسياب ماء نافورة في مكان ما.

سألتْ لوكي: "هل أنت متأكد؟ أنا لا أسمع شيئا..."

كنّا، نحن من نسكن في الشقة المقابلة. لقد نسينا أن نطفئ الضوء. وأضـــعنا المفتاح. والكلب الذي تحدثت عنه منذ قليل يتوجب عليه أن ينتظرنا. لقد نام في غرفتنا وسيظل فيها ينتظرنا إلى نهاية الزمن.

تمشينا، فيما بعد، في اتجاه الشمال، وكي لا ننحرف كثيرا، اتفقنا علـــى هدف واحد، وهو ساحة الجمهورية، لكننا لم نكن متأكدين من اتباعـــنا الوجهة الصحيحة. الأمر ليس مهمّا، نستطيع دائما أن نركب الميترو ونعود إلى أرجنتين، إذا ما ضعنا في الطريق. قالت لي لوكي إنها كـــثيرا ما جالت في هذا الحيّ، أيام طفولتها. غي لافيني، وهو صديق أمهـــا، كـــان يملـــك مرآبا في هذه المنطقة. نعم، بالقرب من ساحة

الجمهــورية. كــنا نتوقف عند كل مرآب، لكنه لم يكن أبدا المرآب الــصحيح. ولم تعثــر على الطريق. المرة القادمة التي ستذهب فيها إلى أوتــوي لزيارة غي لافيني يتوجب عليها أن تسأله عن العنوان الصحيح لمرآبه القديم قبل أن يرحل هذا الشخص، هو الآخر. يبدو الأمر بسيطا لكــنه مهــمّ، وإلا فإننا سنفقد أيّ نُقطة مَعْلَم في الحياة. تذكرتْ أن والدها وغي لافيني كانا يصطحباها، بعد عيد الفصح، يوم السبت، إلى معرض تْرُون. وكانوا يذهبون إلى هذا المعرض، مشيا على الأقدام، عبر بــولفار لا ينتهي يشبه البولفار الذي نسلكه الآن. كان ربما، هو نفسه الآن. لكنــنا الآن نبتعد عن ساحة الجمهورية. في أيام السبت، آنذاك، كانــت تتمــشى مع والدها ومع غي لافيني إلى أن تصل إلى حدّ غابة فانسين.

كان الوقت يقترب من منتصف الليل، وسيكون غريبا أن نجد نفسينا أمام شباك حديقة الحيوان. نستطيع أن نشاهد الفيلة في الظل. لكن هناك، أمامــنا، تنفــتح فسحةٌ مضيئة وسطها ينتصب تمثال. ساحة الجمهورية. وبقــدر ما كنا نقترب كانت موسيقى تصدح بشكل يزداد ارتفاعا. حفلة راقــصة؟ ســألت لوكــي إن كان اليوم يصادف 14 يوليو. كانت، هي الأخــرى، تجهل التاريخ. منذ بعض الوقت، أصبحت الأيام والليالي تتشابه عليــنا. الموســيقى كانت آتية من مقهى، تقريبا في زاوية البولفار وشارع غراند – بريوري. بعض الزبائن كانوا جالسين على الرصيف.

أضعنا الميترو الأخير. مباشرة بعد اجتياز المقهى، يوجد فندق كان بابــه مفتوحا. مصباح عارٍ يضيء درجا صلبا جدا درجاتُهُ من الخشب الأسود. الحارس الليلي لم يكلّف نفسه عناء طلب اسمينا. دلّنا فقط على رقــم الغــرفة في الطابق الأول. قلت للوكي: "ابتداءا من الآن، يمكننا الإقامة هنا".

ســـريرٌ لشخص واحد ولكنه لم يكن ضيقا بالنسبة لنا. لا ستائر ولا مـــصراعين للـــنافذة. تـــركناها مفتوحة قليلا، بسبب الحرارة. في الأسفل، صمتت الموسيقى، وسمعنا قهقهات ضحك. قالت في أذني:

"أنت على حق. يجب علينا أن نظل، هنا، دائما."

تـــصورت أنـــنا بعـــيدان عن باريس، في ميناء صغير على البحر المتوســـط. كـــل صـــباح، وفي نفس الساعة، نتتبع طريق الشواطئ. احـــتفظتُ بالعـــنوان: 2 شارع غراند - بريوري. فندق هيفيرنيا. في غـــضون كل السنوات الكئيبة التي تتابعت، كنت أُسْأل عن عنواني أو عن رقم هاتفي كنت أجيب: "ما عليكم سوى أن تكاتبوني على عنوان فندق هيفيرنيا، 2، شارع غراند-بريوري. وسيقومون بتحويل الرسائل إليّ." يتوجب عليّ أن أذهب لتسلم كل هذه الرسائل التي تنتظرني منذ زمن طويل والتي ظلت من دون جواب. كنتِ على حق، كان علينا أن نبقى هناك، بشكل دائم.

رأيـــتُ غي دي فير للمرة الأخيرة، بعد سنوات طويلة. في شارع منحدر ينـــزل نحو أُودْيون، توقفت سيارة في مستواي وسمعتُ شخصا يناديني باسمي القديم. تعرفت على الصوت، قبل أن ألتفت. أمال رأسه مـــن فـــوق زجاج بوابة السيارة. ابتسم في وجهي. لم يتغير. عدا شعر رأسه الذي كان أقل طولا.

كـــان هذا في شهر يوليو، في الساعة الخامسة مساء. وكان الجو حارا. جلسنا معا على صندوق السيارة كي نتحدث. لم أجرؤ أن أقول لــــه بأننا كنا على بعد بضعة أمتار من كوندي ومن الباب الذي تدخل مـــنه لوكي دائما، باب الظل. ولكن الباب لم يعد له وجود. من هذا الجانب كانت توجد واجهة زجاجية حيث توجد الآن أكياس التمساح وأحذية عالية بل ويوجد حتى مقعد خشبـــي بثلاث قوائم وأسواط. في برانس دي كوندي. متجر المصنوعات الجلدية.

"إذاً، ماذا أصبحت، يا رولاند؟"

كان الصوتُ، دائما، نفس الصوت الواضح، الصوت الذي يجعل النـــصوص المغلقـــة جدا مفتوحة أمام الجميع حين يقرأها أمامنا. كنت متأثـــرا لكونه لا يزال يتذكرني ويتذكر اسمي خلال تلك المرحلة. كثيرٌ من الناس حضروا الاجتماعات، في سكوار لوفيندال... البعض لم يأتِ سوى مرة واحدة، عن فضول، وآخرون كانوا مثابرين. وكانت لوكي من هؤلاء الآخيرين. وأنا أيضا. إلا أن غي دي فير لم يكن يبحث عن أي مـــريد. لم يكـــن يعتبر نفسه على الإطلاق معلّما رائدا وكان يمنع

نفسه من ممارسة أي تأثير على الآخرين. كان الآخرون هم الذين يأتون للقائـــه من دون أن يلح هو في طلبهم. أحيانا كنا نخمن بأنه ربما فضّل الـــبقاء وحـــيدا في بيته وهو يحلم، لكنه لم يكن يستطيع أن يرفض لهم شيئا، وبشكل خاص سَنَدَه كي يروا ذواتهم، بشكل أكثر وضوحا.

"وأنت، هل عدت إلى باريس؟"

ابتسم دي فير وتأملني بنظرة ساخرة.

"لم تـــتغير أبدا، يا رولاند... أنت تجيب على سؤال بطرح سؤال آخر..."

حتى هذه الخاصية، هي الأخرى، لم يَنْسها. كان يمازحني كثيرا بهذا الصدد. وكان يقول لي بأنني لو كنتُ ملاكما، لكنت سيدا في المُخاتلة.

"... لم أعـــد قط أقيم في باريس، منذ فترة طويلة، يا رولاند... أعيش الآن في المكسيك... يجب عليّ أن أعطيك عنواني..."

في ذلك اليوم الذي ذهبتُ فيه للتأكد من وجود لبلاب في الطابق الأرضـــي مـــن عمارته، كنت قد سألت الحارسة عنوان غي دي فير الجديد، في حالة ما إذا كانت تعرفه. قالت لي ببساطة: "غادر من دون أن يترك عنوانا". حدثتُه عن هذه الزيارة إلى سكوار لوفيندال.

"أنـــت رجـــل غـــير قابـــل للإصلاح، يا رولاند، بقصتك عن اللـــبلاب... لقد تعرفتُ عليك وأنت شاب يافع، أليس كذلك؟ كم كان عمرك، آنذاك؟

- 20 سنة.

- حـــسنا، يبدو لي أنك في هذه السنّ انطلقت في البحث عن اللبلاب الضائع. هل أنا مخطئٌ؟"

لم يغادرني نظره وكان يحجُبه ظلٌّ من حزن. كنا، ربما، فكرنا في الشيء ذاته، ولكني لم أجْرُؤ على التلفظ باسم لوكي.

قلت له:

"الأمــــر غـــريبٌ. في زمن اجتماعاتنا، كنت كثيرا ما أرتاد هذا المقهى الذي لم يعُد مقهى."

أشـــرت، علـــى بعـــد أمتار منا، إلى متجر المصنوعات الجلدية: أوبرانس دي كوندي.

قال لي:

"نعم. باريس تغيّرت كثيرا في السنوات الأخيرة."

تـــأملني وهو يقطّب حاجبيه، كما لو أنه يريد أن يتذكّر تذكارا قصيّا.

"هل لا زلت تشتغل حول المناطق المحايدة؟"

تـــساقط الـــسؤال بطـــريقة فجّة لدرجة أنني لم أفهم على الفور تلميحه.

"كان نصك عن المناطق المحايدة هاما جدا..."

يـــا إلهي، أية ذاكرة... نسيتُ إن كنت أطلعته على هذا النص. ذات مـــساء، عند نهاية إحدى اجتماعاتنا في بيته، ظللنا، لوكي وأنا. أردت أن أعـــرف إن كان عنده كتابٌ بخصوص **العود الأبدي**. كنا في مكتـــبه وألقى نظره على بعض رفوف مكتبته. وعثر أخيرا على كـــتاب بغلاف أبيض وأسود: نيتشه: فلسفة **العود الأبدي للسّواء**[1] (Philosophie de l'éternel retour du même) وقدّمـــه لي وقرأته في الأيـــام التي تلت بكثير من الاهتمام. في جيب سترتي كانت تقبع بضع صـــفحات مطبوعة على الآلة الكاتبة بخصوص المناطق المحايدة. كنت أريد أن أعطيه إياها لمعرفة رأيه، ولكني ترددت. إلا أنني قبل أن أغادر،

---

(1) Le même السّواء: كما أوردها نيتشه في نظرية العود الأبدي: سواء النفس وما يُعادلها.

قررت وأنا على عتبة الباب، وبحركة مفاجئة، أن أمدّ له المظروف الذي جمعت فيه هذه الصفحات، من دون أن أتلفظ بكلمة.

قال:

"كنت مهتما جدا بعلم الفلك. وبشكل خاص، المادة السوداء..."

ما كنت لأتخيّل أبدا أنه سيتذكر هذا. إلاّ أنه، في حقيقة الأمر، كان شديد الاهتمام بالآخرين، ولكننا لا ننتبه للأمر في تلك اللحظة.

قلت له:

"من المؤسف أنه لا يوجد اجتماع، في هذا المساء في سكوار لوفيندال، مثل السابق..."

بدا متفاجئا من كلماتي. ابتسم لي.

"إنه هَوَسُك الدائم بالعود الأبدي..."

نتمشى الآن طولا وعرضا على الرصيف، وفي كل مرة، تأخذنا خطانا إلى متجر المصنوعات الجلدية. أو برانس دي كوندي.

سألته:

"هل تتذكر ذلك المساء الذي وقع فيه انقطاع للتيار الكهربائي في بيتك والذي كلمتنا فيه في الظلام؟

- لا.
- سأعترف لك بشيء. لقد أوشكت أن أصاب بنوبة ضحك، في ذلك المساء.

أجابني، بنبرة فيها شيءٌ من العتاب:

- كان عليك أن تفعل. إن الضحك مُعْدٍ. وكنا سنضحك جميعا، في الظلام."

نظر إلى ساعته.

"سأكون مضطرا إلى مغادرتك. عليّ إعداد حقائبي. أسافر غدا. وليس لديّ الوقت لأسألك عن مشاغلك الآن."

أخرج مفكّرة من جيب سترته الداخلي ومزّق ورقة.

"أعطيك عنواني في المكسيك. عليك أن تأتي، حقيقة، لزيارتي."

وبشكل مفاجئ اتخذ كلامه لهجة آمرة، كما لو أنه يريد جرّي معه وإنقاذي من نفسي. ومن الحاضر.

"ثم إنني أواصل الاجتماعات هناك. تعال، أعتمد عليك."

ومدّ إليّ الورقة.

"أنت الآن لديك رقم هاتفي. علينا ألا نفقد التواصل، هذه المرة".

حين دخل السيارة، أمال رأسه، من جديد، من فوق زجاج بوابة السيارة الذي كان مفتوحا بعض الشيء.

"قل لي... أفكر كثيرا في لوكي... لا أزال أجهل السبب..."

كان متأثرا. وهو الذي كان يتحدث دائما من دون تردد، وبطريقة واضحة جدا، أصبح يبحث عن كلماته.

"إنها بلاهة ما أقول لك... لا شيء يمكن فهمه... حين نحبّ شخصا ما، بشكل حقيقي، يجب أن نقبل جزءه الغامض... ولهذا السبب نحبه... أليس كذلك، يا رولاند؟..."

أطلق سيارته بشكل فجائي، من دون شك كي يوقف تأثره. ويوقف تأثري. وكان لديه بعض الوقت كي يقول لي:

"إلى لقاء سريع، يا رولاند."

كنت وحيدا أمام متجر المصنوعات الجلدية أوبرانس دي كوندي. ألصقتُ جبهتي بالواجهة الزجاجية لأرى إن كانت لا تزال توجد بعض آثار المقهى: جزء من الحائط والباب الموجود في الركن القصي والذي يفضي إلى هاتف الحائط وأيضا الدرج الحلزوني الذي

يـــؤدي إلى الشقة الصغيرة لمدام شاذلي. لا شيء. كل شيء كان ناعما ومـــشدودا بقماش برتقالي. وكان هذا موجودا في كل هذا الحي. على الأقل لم يكن ثمة من خطر الالتقاء بأشباح. الأشباح نفسها كانت ميتة. لا شـــيء يمكن الخوف منه عند الخروج من ميترو مابيون. لا بيرغولا ولا موشيليني من خلف زجاج النافذة.

تمـــشيتُ بخطـــى رشيقة كما لو أني وصلتُ ذات مساء من شهر يولـــيو إلى مدينة أجنبية. رحت أصفّر لحن أغنية مكسيكية. ولكن هذه اللامـــبالاة المغلوطة لم تدُم طويلا. كنت أتمشى بمحاذاة سياج حديقة ليكـــسمبورغ ولازِمَـــة "أي خاليسكو نو تي راخيس"[1] تنطفئ على شـــفتي. إعلان معلق على جذع إحدى الشجرات الكبيرة التي تحمينا بأوراقهـــا إلى مدخل الحدائق، هناك، في سان-ميشيل. "هذه الشجرة خطـــيرة. سيتم قطعها قريبا. وسيتم وضع أخرى مكانها ابتداء من هذا الـــشتاء." اعتقدت، خلال بعض لحظات، أنني في كابوس. ظللتُ في مكـــاني، متسمرا، في قراءة وإعادة قراءة هذا الحكم بالموت. جاء أحد المارة يقول لي: "هل تحس بألم، سيدي؟" ثم ابتعد، من دون شك خائبا من بصري الشاخص. في هذا العالَم الذي يُخيَّل إليَّ، أكثر فأكثر، أنني ناجٍ من الموت، تُقطَع فيه حتى الأشجار... واصلتُ مسيري وأنا أحاول التفكير في موضوع آخر، لكن الأمر كان صعبا. لم أستطع نسيان هذا الإعـــلان وهذه الشجرة المحكومة بالإعدام. كنت أتساءل كيف كانت رؤوس أعضاء المحكمة ورأس الجلاّد. استعدتُ هدوئي. وكي أشدَّ من عزمـــي تخـــيلت غي دي فير وهو يتمشى بجانبـــي ويردد لي بصوته الرقيق: "لا، يا رولاند، إنه كابوس... الأشجار لا تُقطَع..."

---

(1) Ay Jalisco no te rajes

كنت قد تجاوزت سياج الدخول إلى الحديقة وكنت أسلك جزء البولفار الذي يؤدي إلى بورت - روايال. ذات مساء، وكنت بصحبة لوكي، رافقنا إلى هذه الناحية شابا من نفس عمرنا كنا تعرفنا عليه في كـــوندي. أشار، عن يميننا، إلى بناية مدرسة المعادن وهو يعلن بصوت حـــزين، كما لو أنه كان يرزأ تحت ثقل هذا البوح، بأنه تلميذ في هذه المدرسة.

"هل تعتقدون أنه يتوجب عليَّ أن أظل في هذه المدرسة؟"

شـــعرت أنـــه يترقب تشجيعا من طرفنا ليساعده على اتخاذ قرار خطـــير لا ســـبيل إلى الرجوع عنه. قلت له: "لا، يا عزيزي، لا تبق فيها... اتجه إلى الفضاء الفسيح..."

اســـتدار نحو لوكي. وكان ينتظر رأيها، هي أيضا. قالت له إنها مـــنذ أن رُفـــضت في ثانـــوية جيل-فيري، أصبحت حذرة جدا من المـــدارس. أعتقد أن ما قالته لوكي ساهم في إقناعه. قال لنا، في اليوم التالي، في كوندي، بأن مدرسة المعادن انتهت بالنسبة إليه.

كنا كثيرا ما نأخذ، لوكي وأنا، نفس الطريق للعودة إلى الفندق. كـــان مـــنعطفا ولكنـــنا كنا متعودين على المشي. هل كان منعطفا، بالفعل؟ لم يكن كذلك، إذا ما تأملناه جيدا، فهو طريق مستقيم، فيما يبدو لي، نحو داخل الأراضي. في الليل، وعلى طول جادة دونفيرت - روشرو، كنا في مدينة فرنسية غير باريس، بسبب الصمت وبسبب كل المَـــضْيَفات الدينية التي كانت تتتابع بوّاباتها. قبل أيام سلكتُ، مشيا، الطـــريق المُوشَّـــاة بأشـــجار الدُّلْب والحيطان العالية التي تَفْصِل مقبرة مونـــبارناس إلى قـــسمين. وهو أيضا طريق فندقها. أتذكر أنها كانت تفضّل تجنبها، ولهذا السبب كنا نمرّ عبر طريق دونفير - روشرو. لكن، في الفترة الأخيرة، لم نَعُد نخشى شيئا وأصبحنا نكتشف أن هذه الطرق

الـــتي تقطـــع المقبرة لا تخلو من بعض فتنة، ليلاً تحت قمة الأشجار. لم تكـــن تعـــبر المكان أي سيارة في مثل هذه الساعة و لم نكن نلتقي فيها أبدا، بأيّ شخص. نسيتُ أن أدرجها في قائمة المناطق المحايدة. كانت بالأحرى حدودا. حين نصل إلى النهاية ندخل في بلد نحن فيه بمنأى عن كـــل شيء. في الأسبوع الماضي لم أتمشَّ في الليل وإنما في نهاية ما بعد الظهـــيرة. لم أكُنْ قد عُدتُ إليه منذ أن كنّا نسلكه معا أو حين كنتُ ألحـــق بـــك في الفندق. جاءتني لحظة صورة خادعة بأنني سوف أعثر علـــيك، من جديد، في ما وراء المقبرة. هناك، ستكون **العود الأبدي.** نفس الحركة السابقة لتسلم مفتاح غرفتك عند الاستقبال. نفس الدرج الـــصلب. نفـــس الـــباب البيضاء، الرقم 11. نفس الانتظار. ثم نفس الشفتين. نفس العطر ونفس الشَّعَر الذي يتساقط كالشلاّل.

لا أزال أسمع غي فير وهو يقول لي بخصوص لوكي:

"لم أفهـــم لحـــد الـــساعة لماذا... حين نحبّ شخصا ما، بشكل حقيقي، يجب أن نقبل جزءه الغامض..."

أي غموض؟ كنت مقتنعا أننا متشابهان، لأنه كانت بيننا في كثير من الأحـــيان عمليات نقل أفكار. كنا على نفس طول الموجة. ولدنا في نفس السنة وفي نفس الشهر. لكن يجب تخمين وجود اختلاف في ما بيننا.

لا. أنا أيضا لا أستطيع أن أفهم... خصوصا حين أتذكر الأسابيع الأخـــيرة. في شهر نوفمبر، حيث تتقلص النهارات، أمطار الشتاء، لا شـــيء من كل هذا يبدو أنه يؤثر على معنوياتنا. كنا نشتغل على نفس مـــشاريع السفر. ثم إنه كانت تسود أجواء مَرِحَة في الكوندي. نسيتُ مـــن هـــو الذي أدخل بين أحضان الرواد الأليفين هذا الشخص الذي يدعى بوب ستورمس الذي يقول عنه نفسه إنه شاعرٌ ومخرج سينمائي من أنفيرس البلجيكية. هل هو آدموف، ربما؟ أم موريس رافائيل؟ لقد

أضحكنا كثيرا، هذا الشخص. كان عنده ميلٌ نحو لوكي ونحوي. كان يـــريد أن نقضي الصيف في منـــزله الكبير في مايوركا. لم تكن لديه، فيما يبدو، مشاكل مالية. كان يحكى أن لديه مجموعات من اللوحات الفنـــية... كانـــت تقـــال عنه أشياء كثيرة... ثم إن الناس تختفي يوما ونكتـــشف أنـــنا لا نعرف عنها شيئا، لا نعرف شيئا حتى عن هويتها الحقيقية.

لمـــاذا يعـــودُ شبح بوب ستورمس الضخم بقوة إلى ذاكرتي؟ في لحظات الحياة الموغلة في الحزن، توجد في كثير من الأحيان نغمة ناشزة وخفـــيفة، صورة مهرّج فْلاماندي، شخص ما يشبه بوب ستومرس يمرُّ والـــذي كان باستطاعته تلافي المصائب. كان يقف في الكونطوار كما لو أن المقاعد الخشبية يمكنها أن تنهار تحت ثقل وزنه. كان طويلا جدا إلى درجة أن ضخامته لا تُرى. كان يرتدي دائما ما يشبه صُدرة ضيقة مـــن المخمل والتي يتباين فيها السواد مع لون لحيته وشعره الأصهب. عـــباءة من نفس اللون. في مساء اليوم الذي لاحظنا وجوده لأول مرة، اتجـــه نحو طاولتنا وحدّق في وجهينا، لوكي وأنا. ثم ابتسم وهمس وهو يمـــيل نحويـــنا: "أصحاب الأيام السيئة، أتمنى لكم ليلة سعيدة". حين اكتـــشف أنني أعرف كثيرا من الأبيات الشعرية، أراد أن يتبارى معي. سيكون الفوز لمن ينشد البيت الأخير. ينشد لي بيتا وأفعل مثله، وهكذا دواليك. دام الأمر فترة طويلة. لم يكن لدي أي فضل في الأمر. كنت أشبه شخصا أميا، من دون ثقافة عامة، ولكني كنت أحفظ أبياتا، مثل أولـــئك الـــذين يعزفون أي قطعة موسيقية على جهاز البيانو وهم لا يعـــرفون كـــتاب التنغيم. كان لبوب ستورمس ميزة تفوقني وهي أنه يعـــرف أيضا كل رصيد الشعر الإنجليزي والإسباني والفلمندي. واقفا على الكونطوار ينشدني بنبرة تحدّ:

I hear the shadowy, their long manes a-shake

أو:

Como todos los muertes que se olvidan

En un monton de perros apagados

أو أيضا:

De burgemeester heeft ons iets misdaan

Wij leerden, door zijin schuld, het leven haten

كـــان يتعبني بعض الشيء ولكنه كان شخصا طيبا جدا، وكان يكبرني كثيرا. كنت أتمنى لو أنه حدثني عن حيواته السابقة. كان يجيب دائمـــا على أسئلتي بأجوبة مُداوَرَة. وحين كان يحس أن شخصيته تثير كـــثيرا مـــن الفضول تذوب حيويته المفرطة بصفة مفاجئة، كما لو أنه يمـــتلك شـــيئا يتوجب إخفاؤه أو كمن يريد خلط الأوراق. لا يجيب، وينتهي به الأمر إلى كسر الصمت من خلال انفجاره في الضحك.

أقـــام بوب ستورمس سهرة في بيته. دعانا إلى بيته، لوكي وأنا، مع الآخـــرين: آنيت ودون كارلوس وبووينغ وزكريا وميراي ولاهوبا وعلي شـــريف وأيـــضا الشخص الذي أقنعناه بمغادرة مدرسة المعادن. كان ثمة مدعـــوون آخرون لكني لم أكن أعوفهم. كان يقيم في كي دانجو في شقة كان الطابق الأعلى فيها عبارة عن ورشة كبيرة. استقبلنا في هذا المكان من أجل قراءة لمسرحية كان يريد إخراجها بعنوان: هوب سينيور. وصلنا، أنا ولوكـــي، قبل الآخرين، ولقد ذُهلنا لرؤية الشمعدانات الكبيرة التي كانت تضيء الورشة وأيضا بالدمى الصقلية والفَلَنْديّة المعلقة بخزفيات ومرايا أثاث عـــصر النهـــضة. كان بوب ستورمس يلبس صدرته من المخمل الأحمر. نافذة كبيرة زجاجية تطل على نهر السين. وبحركة من يريد تقديم الحماية، أحاط بذراع لوكي وذراعي وقال لنا جملته الطقوسية:

أصحاب الأيام السيئة

أتمنى لكم ليلة سعيدة.

ثم أخـــرج من جيبه مظروفا ومده إليّ. قال إنها مفاتيح بيته في مديـــنة مايوركا وإن علينا أن نـــزورها في أقرب وقت ممكن، وأن نظـــل فـــيها حتى شهر سبتمبر. قال إن وجهينا نحيلان. كم كانت الـــسهرة غـــريبة... المـــسرحية لم تكن تتضمن سوى فصل واحد والممثلون قرأوها بسرعة. كنا جالسين من حولهم. ومن حين لآخر، أثناء القراءة، وعند إشارة من طرف بوب ستورمس، يتوجب علينا جمـــيعا أن نـــصرخ كمـــا لو كنا نشكل جوقة منشدين: "هوب، ســـينيور" كانت المشروبات الكحولية تتدفق بسخاء. ومواد أخرى ســـامة. كانـــت ثمـــة مائدة طعام وسط الصالون الكبير في الطابق السفلي. وكان بوب ستورمس، بنفسه، من يقوم بتقديم المشروبات في أقداح كبيرة وكؤوس من الكريستال. كان الناس يتكاثرون. في لحظـــة مـــا قدّم إليّ ستورمس رجلا من نفس عمره لكنه أقصر منه بكثير، وهو كاتب أمريكي، ويدعى جيمس جونس وقال إنه "جاره الأقرب". وانتهى بنا الأمر، لوكي وأنا، في نهاية المطاف، إلى أن لا نعـــرف مـــا الذي كنا نفعله وسط كل هؤلاء المجهولين. هذا الكمّ الكبير من الناس الذين التقينا بهم في بدايات حياتنا والذين لن يعرفوا هذا أبدا والذين لن نتعرف عليهم أبدا.

تـــسللنا نحـــو باب الخروج. كنا متأكدين بأنه لا أحد اكتشف مغادرتـــنا لهذا الحشد. لكن ما أن تجاوزنا باب الصالون حتى التحق بنا بوب ستورمس.

"إذاً... تتركوني من دون استئذان، أيها الأطفال؟"

كــان يــتكلم في ابتسامته المعتادة، ابتسامة واسعة تجعله، بفضل لحيــته وقامــته الطويلة، يشبه بعض شخصيات عصر النهضة أو القرن الكبير[1]، روبنس أو بوكينكهام. لكن قلقا كان يظهر في نظرته.

"ألم تحسّا بكثير من الضجر؟

قلت له:

- لا. كانت جيدة، هوب سينيور..."

أحاطنا بذراعيه، لوكي وأنا، كما فعل، من قبل، في الورشة.

"هيّا، أتمنى رؤيتكما غدا..."

رافقنا إلى الباب وهو لا يزال يمسك بكتفينا.

"يتوجب عليكم بشكل خاص، أن تذهبوا على وجه السرعة إلى مايــوركا لتتنفسا... أنتما في حاجة إلى ذلك... وقد أعطيتكما مفاتيح المنــزل..."

عند بداية الدرج تأملنا طويلا. ثم أنشد:

السماء مثل الخيمة الممزّقة لسيرك فقير.

نــــزلنا الدرج، لوكي وأنا، فيما ظل هو مائلا على الدرابزين. كان ينتظر أن أقرأ عليه بيتا شعريا، جوابا على بيته الشعري، كما نفعل عادة. لكني لم أجد ما أقوله.

يُخـــيّل إليّ أني أقـــوم بخلـــط الفصول. بعد بضعة أيام من هذه السهرة، اصطحبت لوكي إلى منطقة أوتوي. يخيل إليّ أن الأمر حدث في الـــصيف، أو في الشتاء، في إحدى الصباحات الباردة، من الشمس والـــسماء الـــزرقاء. كانت تريد زيارة غي لافيني، الذي كان صديق

(1) مرحلة من تاريخ فرنسا (سنوات 1600).

والـــدها. فضلتُ أن أنتظرها. اتفقنا على موعد "في غضون ساعة" في ركـــن شارع المرآب. أعتقد أنه كانت لدينا الرغبة في مغادرة باريس بسبب المفاتيح التي سلمها لنا بوب ستورمس. أحيانا ينقبض القلبُ من الأشياء التي كان يمكنها أن تحدث و لم تكن، ولكني أقول لنفسي، الآن، بـــأن المنـــزل لا يزال فارغا، في انتظارنا. كنت سعيدا، هذا الصباح. ورشـــيقا. أحسست بنوع من النشوة. خطّ الأفق كان بعيدا، أمامنا، هـــناك، نحو اللانهائي. مرآب في زاوية شارع هادئ. ندمت على عدم مـــصاحبة لوكـــي لـــدى هذا السيد لافيني. ربما يُعيرنا سيارة نستقلها للنـــزول، جنوبا.

رأيتها تخرج من باب المرآب الصغيرة. أشارت إليّ بذراعها، كما فعلت، بالتحديد، في المرة الأخيرة، حين انتظرتها، هي وصديقتها جين غول، بالقرب من نهر السين. تتمشى نحوي بنفس خطاها الفاترة، من يراها يقول إنها تخفف من مشيتها، كما لو أن الزمن لا قيمة له. تناولت ذراعي وتجولنا في الحي. هنا سنقطن ذات يوم. على كل حال، لقد كنّا نقطن فيه، دائما. تتبعنا شوارع صغيرة، عبرنا مدارة مقفرة. قرية أوتوي تنفـــصل بهـــدوء عن باريس. هذه العمارات بألوانها الحمراء يمكن أن نجـــدها في منطقة كوت-دازير، ونتساءل إن كانت هذه الحيطان تخفي حديقـــة أم طرف غابة. وصلنا إلى ساحة الكنيسة، أمام محطة الميترو. وهنا، وأعترف بالأمر لأنه ليس لديّ ما أخسره، أحسستُ، لأول مرة في حـــياتي، بـــ "**العود الأبدي**". قبيل هذه اللحظة، كنتُ أجهد نفسي لقراءة أعمال حول الموضوع، بإرادة جيدة من شخص عصامي. حدث الأمـــر، تحديدا، قبل نـــزول أدراج محطة الميترو إكليز - دوتوي. لماذا هـــذا المكـــان، تحديـــدا؟ لست أدري وهذا الأمر ليست له أية أهمية. ظللـــتُ، خلال هنيهة، متجمدا وضغطتُ على يدها. كنا، هنا، معاً في

نفس المكان، منذ الأزل، ونـــزهتنا في أوتوي، قمنا بها من قبل، خلال ألـــف وألـــف حياة أخرى. ليس من حاجة لاستشارة ساعتي. كنت أعرف أن الوقت كان الثانية عشرة ظهرا.

حدث في نوفمبر. في يوم سبت. صباحا وما بعد الظهيرة، كنت جالسا في شارع أرجنتين وأشتغل على موضوع المناطق المحايدة. كنت أريد أن أعزز هذه الصفحات الأربع وأجعل منها ثلاثين صفحة، على الأقل. سيشكّل الأمر كرة من الثلج وأستطيع أن أصل إلى مائة صفحة. كـــان عـــندي موعد مع لوكي في الساعة الخامسة. كنت قد قررتُ مغـــادرة شارع أرجنتين في الأيام القادمة. بدا لي أنّي شُفيت تماما من جراحات طفولتي ومراهقتي، وأنه من الآن فصاعدا ليس لدي أيّ سبب للبقاء مختبئا في منطقة محايدة.

تمـــشيت حتى وصلت إلى محطة ميترو إتوال. كان هو خط الميترو الـــذي نستخدمه في معظم الأحيان، أنا ولوكي، للذهاب لاجتماعات غي دي فير، نفس الخط الذي تتبعناه مشيا على الأقدام، للمرة الأولى. خـــلال عبور نهر السين لاحظتُ وجود العديد من المتنـــزهين في ممر سيْني Cygnes. تغيير الميترو في محطة موت - بيكي - غرونيل.

نـــــزلت في محطة ميترو مابيون وألقيتُ نظرة في اتجاه لابيرغولا، كما نفعل دائما. لم يكن موشيليني جالسا خلف زجاج النافذة.

حين دخلت إلى كوندي، كان عقربا الساعة المستديرة الموضوعة علـــى الحائط يشيران إلى الساعة الخامسة. على العموم، هنا، هي ساعة راكـــدة. كانـــت الطاولات فارغة، عدا الطاولة الموجودة بالقرب من الـــباب، حيث يجلس زكريا وآنيت وجون - ميشيل. وجّه إليّ الثلاثة

نظرات غريبة. لم يقولوا شيئا. كان وجها زكريا وآنيت شاحبين، من دون شك بسبب الضوء النازل من زجاج النافذة. لم يَرُدّوا على تحيتي. كانـــوا يسلطون عليّ نظراتهم الغريبة، كما لو أني ارتكبت إساءة ما. تقلّصت شفتا جون – ميشيل وشعرتُ أنه يريد أن يتكلم. رست ذبابةٌ علـــى ظهر يد زكريا وطردها بحركة عصبية. ثم تناول كأسه وشرب محـــتواه، بجرعة واحدة. نهض من مقعده واتجه نحوي، وقال لي بصوت من دون نبرة: "لوكي. ألقت بنفسها من النافذة."

كنتُ خائفا من أن أخطئ الطريق. مررت من راسباي والشارع الـــذي يُقسّم المقبرة. عند وصولي إلى النهاية، لم أكن أعرف إن كان علـــيّ مواصلة المشي بشكل مستقيم أو اتباع شارع فروداديفو. تتبعت شـــارع فـــروداديفو. انطلاقا من هذه اللحظة حدث غيابٌ في حياتي، فراغٌ، لم يُسبّب لي إحساسا بالفراغ فقط ولكني لم أكن أستطيع تحمل النظر. كل هذا الفراغ يبهرني بضوء حاد ومتوهج. وهذه الحالة ستظل على هذا الأمر، حتى النهاية.

بعد هذا، بفترة طويلة، كنت في قاعة انتظار. كان ثمة رجل في الخمسين من عمره، شَعر رأسه رمادي قصير واقفٌ ويرتدي معطفا بروافد، ينتظر هو الآخر على مقعد، من الجهة الأخرى من القاعة. مـــا عدا الرجل وأنا، لم يكن ثمة أحدٌ. جاءت الممرضة تخبرني بأنها ماتت. اقترب منّا كما لو كان معنيا بالأمر. اعتقدت أنه غي لافيني، صـــديق أمها الذي كانت تذهب لرؤيته في منطقة أوتوي في مرآبه. سألتُهُ:

"هل أنت غي لافيني؟"

هزّ رأسه.

"لا. أنا أدعى بيير كيسلي".

خرجنا معا من بروسي Broussais. كان الليل قد أسدل ذيوله. تمشينا جنبا إلى جنب على امتداد شارع ديدوت.

"وأنت هو رولاند، أفترض؟"

كـــيف أمكن له معرفة اسمي؟ كنت أجد صعوبة في المشي. هذا الفراغ، هذا الضوء المشعّ أمامي...

سألتُه: "هل تركتْ رسالة؟

- لا. لا شيء."

هـــو الذي قال لي كل شيء. كانت تتواجد في الغرفة مع امرأة تدعى جانيت غول، التي ينادونها رأس الميت. لكن، كيف يعرف لقب جانـــيت؟ كانـــت قـــد خرجت إلى الشرفة. وضعت ساقا من فوق الدرابزين. حاولت المرأة الأخرى أن تمسك بها من ذيل مِفْضَلتها. لكن بعد فوات الأوان. كان لديها الوقت للتلفظ ببعض الكلمات، كما لو أنها كانت تكلّم نفسها، كي تمنح لنفسها الشجاعة:

"انتهى الأمر. طاوعي نفسك واستسلمي."

باتريك موديانو
مقهى الشباب الضائع

يتميز باتريك موديانو عن الروائيين الفرنسيين، بعلاقته الوطيدة مع باريس إذ يتخذ من فضاءاتها مسرحاً لأعماله. وهذه الرواية «مقهى الشباب الضائع» نموذجاً لهذه العلاقة بينه وبين المكان، وهنا يختط للماضي صوراً عبر شخوص متنوعة وحكايات تنضح بالشجن الإنساني. وانطلاقاً من مقهى «كوندي» ينسج الكاتب رؤية تكونها التفاصيل والمشاهد المتقاطعة عبر ذلك المقهى، بسرد الذكريات وتقاطعاتها، في محاولة من بعض الشخوص لفهم معنى «العوْد الأبدي»، كما تسعى هذه الرواية إلى أن تجعل من استبطان حب اللحظات الهنية، الحيوية، وسيلة لمقاومة المحْو الذي يبذره الزمان في الذكريات والأماكن والعواطف.

باتريك موديانو

ولد عام 1945 وفرض نفسه ككاتب وهو في الثالثة والعشرين من عمره حين نشر أول رواية له «ساحة النجمة» وحاز عليها جائزة «روجيه نيميه»، تتميز كتاباته بالعمق وتسليط الضوء على الهوية و فشل الإنسان، ويسعى دوماً إلى حفظ الذاكرة. حاز جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية وجائزة غونكور عن رواية «شارع المتاجر المظلمة» عام 1978. ومنح عام 1984 جائزة مؤسسة بير دي موناكو تقديراً لمشواره الروائي الثري.

محمد المزديوي

روائي وصحفي، كتب للكثير من الصحف مثل «العرب» و«الشرق الأوسط»، وله العديد من الترجمات منها رواية «احتمال جزيرة» لميشيل ويلبك ورواية «الأمير الصغير» لسانت إكزوبري.

وفوق كل ذي علم عليم
وزارة التعليم العالي
الملحقية الثقافية السعودية في فرنسا

ISBN 978-9953-87-739-6

9 789953 877396